اسمي سي أوزير

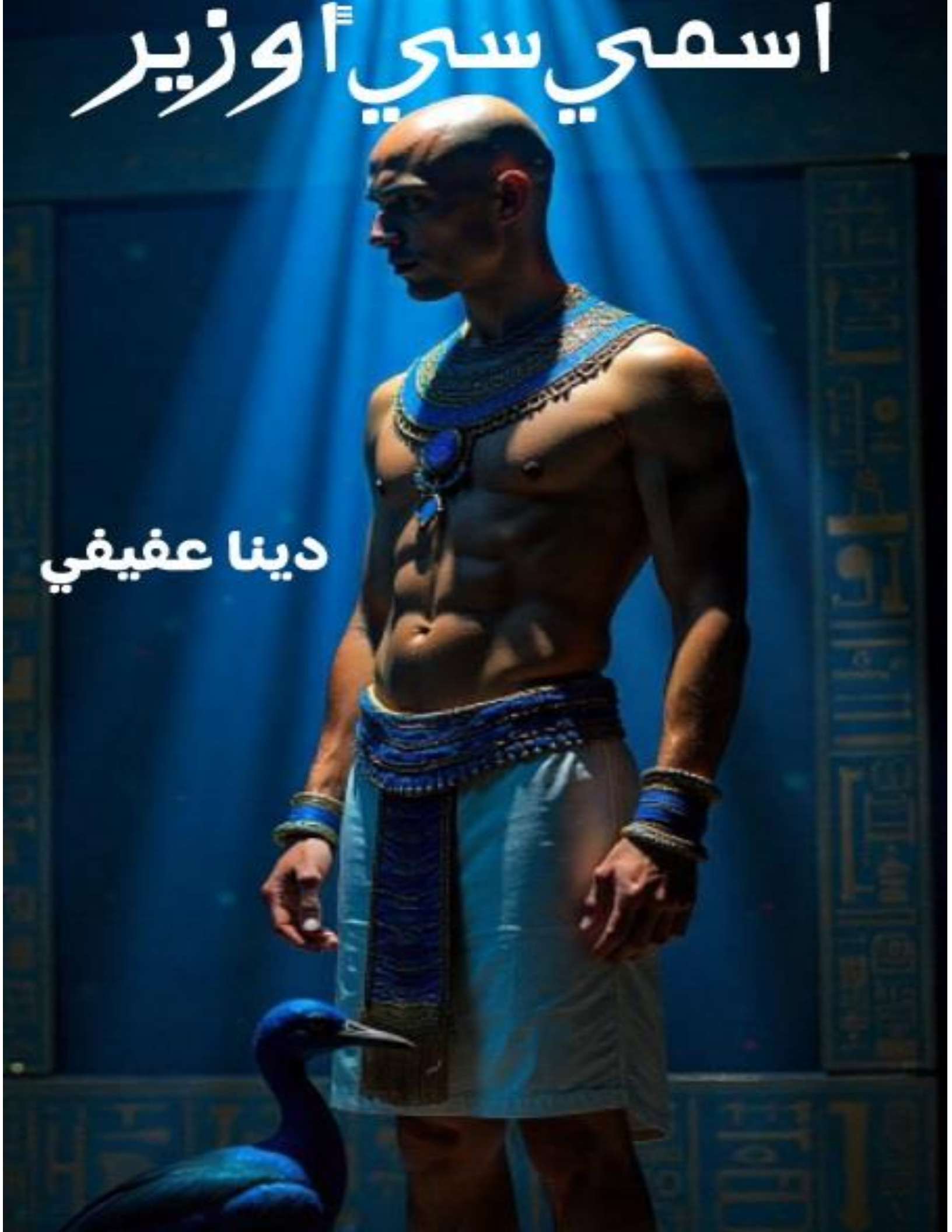

دينا عفيفي

اسمي سي أوزير

تأليف: دينا عفيفي

تأليف: دينا عفيفي

تدقيق لغوي: عبد الناصر السيسي

تصميم الغلاف: دينا عفيفي

للتواصل مع الكاتبة: dinam0afifi@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة لدينا عفيفي

Copyrithgt © 2022 Dina Afifi. All Rights Reserved

شكر وتقدير

أود أن أتوجه بالشكر إلى الأستاذ الفاضل: فوزي السيد علِي، الباحث التاريخي الذي أفادني كثيرًا فيما يخص المراجع، وفيما يخص الملحوظات التاريخية، فله مني جزيل الشكر والتقدير.

الفصل الأول

اسمي "سي أوزير"، عمري الآن 48 عامًا، شهدت أحداثًا غريبةً جدًّا، لدرجةٍ لم أكن أتصورها في يوم من الأيام، أعيش حتى الآن متخفيًا في بلدي مصر كيلا يتعرف إليَّ أحد، وما زلت أخاف أن يبطشوا بي أو أن ألقى مصير أغلب زملائي.

لماذا أعيش متخفيًا في بلدي؟ وكيف وصلت بي الحال إلى ذلك؟

إنها قصة طويلة، ربما يكون لديكم الوقت الكافي للاستماع إليها...

قبل 48 عاما وُلدت في قصرٍ ملكي، فأنا ابن الأمير ساتني (خع – ام – واس) ابن رمسيس الثاني، عانى والداي طويلًا من الحرمان من الإنجاب، ولكن الله سبحانه وتعالى رزقهما بي بعد سنوات طويلة؛ لذلك عندما أتيت إلى هذه الدنيا اهتمَّا بي اهتمامًا بالغًا، ولم يكن تدليلًا بقدر ما هو اهتمامٌ فائقٌ، فقد كانا يعتنيان بي ويتابعان كل ما أقوم به.

نتيجة هذا الاهتمام الفائق اكتشفا مبكرًا مستوى ذكائي المتقدم جدًّا، كما اكتشفا مقدرتي الفائقة على إجادة الكتابة المقدسة، بل وإجادة بعض الحيل السحرية، مما جعلهما يصران على التحاقي بمدرسة **بيت الحياة**، وهي مدرسة لتعليم السحر والعلوم اللازمة للكهنة، حتى أكون من بين يخدمون الملك، ويدافعون عن القُطر المصري من الشرور ومن اللعنات التي يريد الأعداء أن تلحق ببلادي، أو هكذا كانوا يُفهمونني، فقد فهمت فيما بعد أن حقيقة الأمر ليست كذلك.

كانت مصر تعتمد بصورة كبيرة على السحر، وكان الملك يعتمد على السحرة في صد كل الشرور عن بلدي الحبيب، وعن نفسه بالطبع، وهذا هو السبب الأساسي لإنشاء **مدرسة بيت الحياة**.

عندما التحقت بهذه المدرسة كان عمري نحو 12 عامًا، وكانت **بيت الحياة** ملحقةً بأحد معابد أبيت رست (الكرنك)، وهي مدارس منتشرة في أنحاء مصر، كان معلمنا هو الآخر من كبار الكهنة في المعبد، وبالتالي من كبار السحرة، وكان زملائي مشاريع سحرة صغيرة.. مثلي تمامًا.

يوم الدراسة كان كالتالي:

- مراجعة على الكتابة المقدسة، فهي الشرط الأساسي الذي كان لا بد منه حتى نكون سحرة؛ حيث لا يوجد ساحر لا يجيد الكتابة المقدسة.
- مراجعة على التعاويذ الأساسية التي لا غنى عنها في حياة أي ساحر.
- ممارسة بعض الحيل السحرية.
- تدريس بعض العلوم والمعارف.

وفي مدرسة بيت الحياة أيضًا يحدث التالي:

- التأكيد على أن الساحر لا يمكن أن يستخدم هذا السحر في الشر، فالهدف من هذا السحر هو حماية مصر والملك.
- التعريف بقوانين ممارسة السحر في مصر؛ حيث إن المبدأ الأساسي في هذا القانون هو أنَّ مصير الساحر الذي يَقتُل من خلال السحر هو الموت لا محالة.
- التأكيد على أن السحرة هم نخبة المجتمع.
- على الساحر أن يكون مُلِمًّا بكل العلوم والمعارف حتى يستطيع أن يكون ساحرًا ماهرًا.

كنت سعيدًا للغاية وأنا أدرس هذه الدراسة، وكنت مستمتعًا بها رغم أنني في بعض الأحيان كان ينتابني شكٌّ فيما نتلقاه من تعاويذ ومن مبادئ السحر، لكني كنت دائمًا أتجاوز هذه الشكوك وأنحيها جانبًا؛ كي أستمتع بالقوة التي يمنحها لي السحر.

الفصل الثاني

أتذكر جيدًا اليوم الأول الذي حاول فيه والداي إلحاقي بمدرسة بيت الحياة، فقبل الالتحاق كان لابد أن أمُر أولًا بمقابلة مع كهنة أو سحرة المدرسة حتى يتأكدوا أنني أصلح كساحر.

في هذا اليوم كان يصطحبني والداي.

استقبلني في البداية رجل ليس كبيرًا طاعنًا في السن ولا شابًا صغيرًا، وطلب من أبي وأمي أن يتركاني، اصطحبني إلى المكان الذي سيجري فيه اختباري أمام الكهنة، كان رجلًا طويلًا جدًّا ونحيفًا، وأصلعَ تمامًا لا توجد شعرة واحدة في رأسه.

سرنا لفترة طويلة داخل أروقة مدرسة بيت الحياة. قطعنا مسافة طويلةً جدًّا. فلم نكد ننتهي من ممر إلا ودخلنا في الممر الذي يليه، لدرجةٍ أصابتني بالدوار والتعب. شعرت حينئذ أنني في متاهة لن أخرج منها مطلقًا.

وصلت أخيرًا إلى مكان الكهنة وكبار سحرة المدرسة. أشار لي الرجل الذي اصطحبني في البداية إلى الجلوس على مقعد بلا ظهر. أنا بطبيعتي لا أخشى شيئًا ولا يصيبني التوتر بسهولة، لكن في هذا الموقف بالتحديد شعرت بقلقٍ بالغ.

انتظرت فترة طويلة جدًّا، وبدأت أتصبب عرقًا من فرط التوتر، وأخيرًا وصل الكهنة الذين يشكلون اللجنة التي سوف تختبرني. دخل خمسَتُهم الواحد تلو الآخر، وكان يتوسطهم رجل يبدو عليه أنه هو الأكبر سنًّا. رغم أنهم جميعا كانوا حليقي الرؤوس إلا أن الشخص الموجود في المنتصف كان يبدو من ملامح وجهه أنه الأكبر سنًّا، كما كان يرتدي زيًّا مختلفًا عن باقي الكهنة.

جلس الخمسة، وأخذوا يتفحصونني ويدققون فيَّ جيدًا، لدرجة أربكتني أكثر وأكثر، ثم بدأَتْ عمليةُ الشواء.. أقصد عملية الاختبار المضنية.

بادري الكاهن الذي يجلس في أقصى يمين لجنة الاختبار:

- ما اسمك يا فتى؟
- اسمي سي أوزير.
- كم عمرك؟
- 12 عامًا.
- لماذا أتيت إلى هنا؟
- والداي أحضراني.
- هل هذا هو السبب الوحيد؟

هنا ارتبكت قليلًا، فأنا لا أعلم بالضبط ما الذي ينبغي عليَّ قوله حتى أجتاز هذا الاختبار. حاولت أن أتنفس بشكلٍ منتظمٍ حتى أهدأ قليلًا، وحتى لا يبدو من نبرة صوتي التوتر الهائل الذي أشعر به. ابتلعت ريقي وأخذت أتنفس تنفسًا عميقًا، وحاولت أن أستجمع قواي وشجاعتي، **وأجبت قائلًا:**

- الحقيقة ليس هذا هو السبب الحقيقي.. عمري الآن 12 عامًا، ومنذ أن كنت صغيرًا وأنا أحب جدًّا الكتابة المقدسة، وأتقنتها بالفعل لدرجة أدهشت والداي وكل المقربين منا. كما أنني مارست بعض الحيل السحرية التي جعلتني أحبُّ السحر، وجعلتني أحب أن أتعلم أكثر عن علوم السحر وفنونه.

سألني كبير الكهنة الذي يجلس في المنتصف:

- عظيم. كلام جميل جدًّا!

لم أصدق نفسي عندما سمعت كبير الكهنة شخصيًّا يقول هذا الكلام الطيب لي، ولكني لم أكن أعلم أن هناك "كمينًا" وشيكًا. **باغتني قائلًا:**

- حسنًا، أرنا حيلة أو اثنتَين من التي تجيدها.

لا أدري ما الذي جعلني أذكر لهم أنني حفيد الملك رمسيس الثاني، **فقلت للجنة الممتحنة:**

- ألا تعلمون مَن أنا؟

تبادل الخمسةُ النظرات التي شعرت أنها تقول الكثير من الكلام غير المنطوق، وجدت كبير السحرة يبتسم ابتسامةً ماكرةً ويهز رأسه من الأعلى لأسفل. تعمد الخمسة أن لا يردوا عليَّ فيما وجهته لهم من تهديد ضمني.

في هذه اللحظة، شعرت أنني نسيت كل ما كنت أجيده، ونسيت كل ما تعلمته من الحيل السحرية، ومن بعض العلوم التي تعينني على هذا الموقف العصيب، ولوهلة شعرت أن مخي توقف تمامًا عن التفكير، وأنه أصبح كصحيفة البردي الخالية من الكتابات. لا شيء على الإطلاق، لا شيء!

"يا فتى.. أنت تقول إنك تجيد بعض الحيل السحرية، أرنا حيلةً واحدةً على الأقل من هذه الحيل التي تذكر أنك تجيدها".

توقفت عن التفكير فيما قال كبير الكهنة. حاولت أن أهدئ من روعي بنفسي. استمررت في تمارين النفس التي أجيدها وتعلمتها أيضًا لتهدئة نفسي. أخذت أركز في حركات الشهيق والزفير. تابعت حركة معدتي وهي تمتلئ بالهواء، ثم تصبح فارغة. تابعت حركة الهواء وهو يخرج من فمي. لكن من الواضح أنني استغرقت وقتًا أطول من اللازم.

هنا فاجأني كبير الكهنة بصوته الغليظ وهو يقول لي:

- يا فتى، ألا تثبت لنا أنك جدير بدخولك مدرستنا؟
- حسنًا يا سيدي، حاضر. سوف أبدأ خُدعة أتقنها جيدًا.

الفصل الثالث

أخذ خمستُهُم يتابعونني بكل شغف واهتمام. كان معي حِوَال به بعض الحِبَال[1]، فأخرجت هذه الحبال، ولكي أُضفي على نفسي بعض الغموض كنت أتعمد أن أخرج كل حبل منفردًا، وأن أكون بطيئًا قدر استطاعتي. كما كان معي مُرَكَّبٌ لمادة الزئبق الذي قال لي معلمي الذي كان يدرس لي مادة العلوم: إنه في حالة إحراقه يتحول لعمود يشبه الثعبان.

أحدثت حفرة في منتصف هذا الْمُرَكَّب ووضعت به أحد الحبال. كان الخمسة الذين يشكلون اللجنة يراقبونني وهم مندهشون؛ لأنهم لا يفهمون تمامًا ما الذي يمكن أن يحدث من الحبال، وهذه المادة التي تشبه الرمال.

أشعلت النار في طرف أحد الحبال، ثم أخذ هذا الحبل يلتقط هذا الْمُرَكَّب ويحترق معه فكَوَّنا شكلًا غريبًا جدًّا، وكأنه ثعبان يتراقص أو يتلوى. كانت الدهشة ترتسم على وجوه خمستهم. كنت أرمقهم بنظرةٍ سريعةٍ وأنا منهمك في الحيلة التي أقوم بها، وكنت أجدهم مشدودين للغاية لما أفعل، ويتابعون كل خطوة بعناية فائقة، وفي اللحظة التي بدأ فيها هذا الجسم الغريب يتصاعد ويتحرك كأنه ثعبان بدَا عليهم الاندهاش الشديد والانبهار، مما أكسبني ثقة بالغة في نفسي.

وبعد أن انتهيت من الحيلة، أحببت أن أسمع منهم رأيهم فيما فعلت الآن. تحولت بعيني بين الخمسة فوجدت أنهم جميعًا لا يبدو عليهم أي انطباع، وكانت ملامحهم جامدةً للغاية، وكأنهم اتفقوا على أن لا يظهروا لي أي رد فعل أو أي اندهاش.

1- أحببت أن أتحدث عن تمهيد لخدعة سحرة فرعون كما تردد مؤخرًا من تفسير علمي للخدعة التي مارسها السحرة أمام موسى، وكيف أن مادة ثيوسينات الزئبق الثنائي المؤكسدة هي المسؤولة عن هذه الخدعة عند احتراقها، وهناك الكثير من مقاطع الفيديو المتداولة لهذه التجربة التي تبدو فعلًا وكأن ثعبانًا يتلوى.

بادرتهم أنا بالسؤال:

- ما رأيكم في هذه الحيلة؟ هل أعجبتكم؟

رد عليَّ كبير الكهنة قائلًا:

- إنها حيلة لا بأس بها يا فتى. صحيح هي حيلةٌ قديمةٌ نوعًا ما، لكنها ليست من الحيل المعروفة. لا بأس بها على أي حال كبداية.

في هذه اللحظة شعرت بخيبةِ أملٍ وإحباطٍ شديدين، كنت أظن أن الإطراء سينهال عليَّ؛ لأنني قمت بهذه الحيلة الرائعة التي لم يكن أحدٌ يعرف بها على حد علمي. لكنهم لم يندهشوا، بل إن كبير الكهنة أشعرني بأنني لم آت بشيء ذي بال أصلًا، وأن خدعتي معروفة وتافهة.

أخذت أحدث نفسي، تُرى سيقبلونني في المدرسة بما أن حيلتي لم تكن بالإبهار الذي كنت أتوقعه؟ أم أنهم قرروا أن مستواي في الحيل السحرية لا يرقى إلى مدرسة الحياة؟

وبينما أنا مستغرق في أفكاري المختلفة، وجدت خمستَهم يتناقشون ويتحدثون مع بعضهم، ثم استداروا لي وجلسوا في مواجهتي مجددًا.

قال كبير الكهنة:

- يا فتى، قرَرْنَا أن نقبلك في مدرسة بيت الحياة، رغم أن مستواك ليس متفوقًا بالدرجة التي نريدها أو نأملها، إلا أننا نجد أننا سنستطيع أن نصنع منكَ ساحرًا كبيرًا.

هنا تنفست الصعداء، وشعرت براحة كبيرة وسعادة غامرة. أخيرًا! أخيرًا سوف أصبح ساحرًا كما كنت أتمنى دائمًا. أخيرًا سأتمكن من حماية مصر من كل الشرور التي تحيط بها. أخيرًا سأحقق حلم حياتي! لا أستطيع أن أنتظر لأخبر أبي وأمي بهذا الخبر الرائع.

قلت للجنة قبل أن أغادر القاعدة:

- شكرًا لكم. أشكركم من كل قلبي. سوف أبذل قصارى جهدي كي أكون الساحر الذي تتمنون أن يخدم بلدنا الحبيب مصر.

رد عليَّ كبير الكهنة قائلًا:

- عفوًا يا فتى. لكن دعني أَقُلْ لك: إن حياتك بعد اليوم لن تكون مثلَ حياتك السابقة. ستختلف حياتك تمامًا عما سبق. لن تعيش الحياة التي يعيشها المواطن المصري. سوف تكون من السحرة، وهذا يعني أنك لا بد أن تضحي بكثير من الأشياء في سبيل تحقيق هذا الهدف. هل أنت مستعد؟
- نعم سيدي. سأبذل قصارى جهدي في سبيل هذا الهدف.
- وشيء آخر.. انس تمامًا أنك حفيدُ الملك. هذه المعلومة لن تفيدَك بشيء كساحر. هل فهمْت؟

خرجت مسرعًا من القاعة عبر هذه الممرات الكثيرة التي تصيبني بالدوار، لكنني وصلت أخيرًا إلى المكان الذي كان ينتظرني فيه والداي. أسرعت إليهما وأنا أقول بأعلى نبرة صوت عندي:

- لن تصدقَا ما حدث! أصبحت الآن طالبًا في مدرسة الحياة!

نبهني الشخص الذي اصطحبني للاختبار إلى ضرورة أن أخفض صوتي، فتنبهت لذلك، وبدأت أهمس لهمَا قائلًا:

- هل تتخيلَا هذا؟ أنا الآن طالب في مدرسة الحياة! هذا أجمل شيء حدث لي في حياتي.

قالت لي أمي:

- إنها أخبار رائعة! أنا سعيدة جدًّا أنك حققت حلمك يا بُنيَّ.

وقال لي والدي:

- خبر رائع! لكن أعتقد أنه سيكون لزامًا عليك أن تبذل مجهودًا كبيرًا في الفترة القادمة، أليس كذلك؟
- بلى يا والدي. أعرف هذا جيدًا.

الفصل الرابع

كان يومًا من أيام الدراسة في مدرستنا مدرسة بيت الحياة، كنا نأخذ العلوم المعتادة في المدرسة كما جرت العادة. لكن في هذا اليوم بالتحديد حدث شيء مختلف. أصبحت صديقًا مقربًا لـ"إيمسخ". أصبحنا لا نفترق، نجلس بجوار بعضنا، ونتشارك في كل شيء. كان إيمسخ ذكيًّا ونشيطًا جدًّا، ولكن كانت تنقصه القوةُ الجسدية، فقد كان نحيلًا وضعيفًا. زميلنا "نبسن" كان يغارُ جدًّا من الصداقة التي تربطنا، كنت أنا قوي البنية، لكن صديقي إيمسخ كان ضعيفًا؛ لذلك حاول نبسن كثيرًا إيذاءه.

وفي هذا اليوم فكر في الطريقة التي يستطيع بها إيذاء صديقي إيمسخ، وفي الوقت ذاته كان يريد أن يجعل منظره سيئًا أمام معلمينا لدرجة ممكن أن تدفعهم إلى طرده من مدرسة بيت الحياة للأبد.

كان أساتذتنا من السحرة يعطوننا الأدوات التي نستخدمها في اليوم الدراسي. كنا نتعلم كل شيء في المدرسة، الكتابة، العلوم الطبيعية، قصص نشأة الكون، علم الفلك، كل شيء.، وكانت كل مادة لها أدواتها الخاصة.

في مادة علم الفلك كان أساتذتنا يشرحون لنا الأجرام السماوية من خلال مجسمات من الذهب. كانوا حريصين جدًّا على هذه المجسمات، وكانوا لا يسمحون لكثير منا بالإمساك بها. من بين الطلبة الذين لم يُسمح لهم بإمساكها صديقي إيمسخ. بالتالي فكر نبسن في سرقتها واتهام إيمسخ بسرقتها؛ لأنه كان محرومًا من إمساكها، وبهذا يضرب عصفورين بحجر، يكون قد فرق بيننا كصديقين، ويتمكن من طرده مِن المدرسة.

رأيت نبسن يتسلل إلى القاعة التي توجد بها الأدوات التي يستخدمها معلمونا ويدس في حقيبته مجسمًا لأحد الأجرام السماوية. تابعته لأنني كنت أريد أن أعرف ما الذي سيفعله بالمجسم، وجدته يتجه إلى حقيبة إيمسخ المصنوعة من الكتان ويدس المجسم فيها دون أن يراه أحد. لكنه لم يكن يدرك أنني أراقبه جيدًا.

حضر معلمنا لمادة الفلك، سألَنَا عند دخوله قاعة الدراسة:

- هل رأى أحدكم مجسم الجرم السماوي المصنوع من الذهب؟ لا أجده في أي مكان.

ساد الصمتُ القاعةَ، ولم يرد أحد.

كرر المعلم السؤال، **وهنا رفع نبسن يده وقال:**

- أنا أعرف مكانه. لقد رأيت إيمسخ وهو يأخذه ويضعه في حقيبته.
- هل أنت متأكد يا نبسن؟
- نعم، لقد رأيته بعيني هاتين.
- حسنًا، ليس أمامنا خيار سوى تفتيش حقيبة إيمسخ كي نعرف الحقيقة.

وقاموا بالفعل بتفتيش حقيبة صديقي إيمسخ فوجدوا المجسم فيها.

سأله المعلم:

- لم فعلت هذا أيها الفتى الأخرق؟
- لم أسرق شيئًا يا معلمي.
- أنت كاذب، لقد رآك نبسن وأنت تأخذه.
- أنا حقًّا لم أسرق شيئًا ولا أكذب.

لم يصدقه المعلم، وهنا قرّرْتُ أن أتحدث بما رأته عيني. قلت: إنني رأيت نبسن وهو يسرق المجسم من قاعة الأدوات ويدسها في حقيبة إيمسخ دون أن يدري. حاولت تبرئة ساحة صديقي، لكن نبسن كان سريعًا في توجيه الاتهام لي أيضا بأنني أحاول التستر عليه؛ لأنه صديقي المقرب. لكن المعلم لم يوجه لي أي لوم، واكتفَى بتقديم شكوى إلى كهنة المدرسة. قرر الكهنة في اليوم ذاته طرد صديقي إيمسخ من المدرسة إلى الأبد.

في ذلك اليوم عدت إلى منزلي والحزن يطويني؛ لأن صديقي طُرِد من المدرسة بسبب اتهام باطل وظالم. حكيت لأمي وأبي تفاصيل ما حدث، واندهشت جدًّا من هدوئهما، فلم يشعرا بالألم الذي كنت أشعر به بسبب ظلم صديقي، لكنهما أكدا لي أن الحق سيظهر في يوم من الأيام، وأن نبسن سيلقى جزاءه حتمًا على ما اقترفه من أذًى. حينئذ لم أدرك كيف شعر والداي بهذا اليقين في أن الحق سيظهر في يوم من الأيام، لكن الأيام أثبتت لي أن الظلم ربما يبدو قويًّا، لكنه أوهن من خيط العنكبوت في واقع الأمر.

الفصل الخامس

مرت سنواتٌ وأنا في مدرسة بيت الحياةِ، أتعلم من الفنون ما يفيدني في عملي كساحر يحمي بلده، ومع ذلك لم أتمكن في يوم من الأيام أن أنسى ما فعله نبسن بصديقي. كان أكثر ما يؤلمني هو أنني لم أتمكن من مساعدته وإثبات براءته رغم أني رأيت نبسن وهو يسرق المجسم، لكني لم أستطع أن أثبت الحقيقة؛ لأنقذ صديقي من هذا الاتهام الباطل، لكن بقي إصرار والداي ملتصقًا بذهني.

كان هناك زميل آخر لنا متفوقٌ جدًّا وماهرٌ في الحيل السحرية وفي الكتابة المقدسة، وكان تفوق أي شخص دائمًا ما يثير غيظ نبسن. كان نبسن يكره أن يرى أي أحد أكثر تفوقًا منه. كنت متأكدًا أن نبسن سيحاول قطعًا إيذاء زميلنا، وسيحاول إيجاد طريقة للتخلص بها منه، لذلك قررت أن أراقبه وأحاول اكتشاف نيته الخبيثة.

كنت أعلم أنه يدرك هو الآخر أنني أراقبه؛ لذلك كنت أتظاهر بالتشاغل بأي شيء سواه. لم يبدأ بعد درس الصباح؛ لذلك أخرجت من حقيبتي الكتانية بعض الأدوات التي نستخدمها في يومنا الدراسي، وبين كل حين وآخر كنت أرمق بطرف عيني نبسن حتى أتابعه دون أن يشعر هو، وأخيرًا وجدت ضالتي.

وجدته ينهض من مكانه المعتاد ويحاول أن ينثر سمًا خانقًا اسمه "الريسين"، كان يعلم أن زميلنا الذي يغار منه أشد الغيرة لديه بعض منه كان المعلم قد أعطاه هو بالذات إياه. كان يريد أن يعطي الانطباع أن زميلنا مهملٌ ولا يهتم بما يعطيه له المعلم. هذا السم له رائحة يمكن الخبير التعرف إليها، وما أن دخل المعلمُ حجرةَ الدراسة حتى سأل على الفور عن مصدر هذه الرائحة.

لم يكن بإمكاننا نحن الطلبة أن نشم رائحة الريسين، فنحن لسنا متمرسين بما فيه الكفاية، لكن خبرة المعلم جعلته قادرًا على التعرف إلى الرائحة على الفور.

- هل تساهل أحدكم في التعامل مع سم الريسين الذي كنا نتحدث عنه أمس؟

أجبنا جميعًا في صوت واحد تقريبًا:

- لا يا سيدي!
- لكني أشم رائحته.

رفع المعلم يده اليمنى طالبًا منا الصمت. توجه إلى المكان الذي توجد به البقعة التي سكبها نبسن على الأرض. دون أن يمس المكان حتى لا يصيبه مكروه، وأمعن النظر في البقعة وتأكد أنها بالفعل بسبب سم الريسين.

وجه المعلم سؤاله لزميلنا النشط قائلًا:

- أعطيتك كمية من السم أمس يا سنحم، كيف تعاملت معه؟

أجابه سنحم:

- تعاملت معه بحرص شديد، لم أُخرجه إطلاقًا من القنينة.
- إذًا كيف تفسر لي وجود آثاره التي أعرفها جيدًا على أرضية هذه الغرفة؟
- لا أدري يا سيدي.
- هل تعلم خطورة هذا السم؟
- نعم يا سيدي. حدثْتَنا أمس عن خطورته الشديدة، وكيف أننا لا بد أن نبالغ في حرصنا عند التعامل معه.

- حسنًا، وكيف تظن أن هذه المادة أحدثت تلك البقعة؟ هل قَفَزَتْ مثلًا من القنينة من تلقاء نفسها، وقررت أن تنسكب على الأرض؟

أفلتت من نبسن ضحكة، لكنه سارع بإخفائها بيده، غير أنني رأيته جيدًا، ورأيت عينيه تلمعان بنظرةٍ شريرةٍ للغاية توضح التشفي في سنحم.

وجه المعلم كلامه إلى زميلنا محذرًا إياه وقائلًا:

- سوف أتغاضى عما حدث هذه المرة. لكن اعلم أن المرة القادمة لن يكون هناك أي قدر من التسامح.

في هذه اللحظة شعر نبسن بخيبة أمل شديدة؛ لأن مؤامرته لم تنجح، وبعد انتهاء اليوم الدراسي وكل منا يهم بالعودة لمنزله، طلبت أن أتحدث مع نبسن. **فقلت له محذرا:**

- لن أسمح لك بأن تضر أحد زملائنا مرةً أخرى. هل تفهم؟

لم يرد عليَّ، ونظر إليَّ نظرة تحدٍّ وتركني ومضى في طريقه، لكنني كنت حريصًا على تأكيدي على فكرة أنني لن أدعه يؤذي أحدًا آخر. يكفي جدًّا ما فعله في صديقي إيمسخ، ولن أسمح له بتَكرار الأذى.

ظللت له بالمرصاد، وقررت أن لا أدعه يُفلت بأي حيلة لإيذاء سنحم، فكنت أراقبه في كل خطوة يقوم بها، وأستطيع أن أقول: إن إرادة الله سبحانه وتعالى في نصرة المظلوم لا تعلوها إرادة. لقد حدث ما لم يكن في الحسبان أبدًا.

الفصل السادس

في صباح أحد أيام الدراسة، كنا نستعدُّ جميعًا لأداء حيلةٍ سحريةٍ دربنا عليها معلمنا. كما أن المعلمين سيختبروننا في الكثير من المعلومات التي سبق لنا دراستها. كان يوم الاختبار. إنه اليوم الذي سيحدد من الذي سيكمل دراسته في مدرسة بيت الحياة، ومن الذي سيقرر السحرة إخراجه منها؛ لأنه لا يصلح. جاء دوري أَوَّلًا. كنت مرتبكًا في البداية، لكني تمكنت بسهولة من أداء الحيلة. ثم جاء الدور على سنحم، وكان رائعًا وماهرًا جدًّا في أداء الحيلة السحرية.

وعندما جاء الدور على نبسن لا أدري حقًّا ما الذي أصابه. كان نبسن من أمهر الطلبة في المدرسة، لكن الحقد والكره كانا يشغلانه كثيرًا عن التفوق والاجتهاد. فشل نبسن فشلًا ذريعًا في الاختبار. مرَّ الاختبار تلو الآخر، ولم ينجح نبسن في أيٍّ منها، ويا لَلعجب!!

كانت نظراتُ خيبةِ الأمل باديةً على وجهه. بعد انتهاء الاختبارات أطرق نبسن حزينًا، فقد كان يدرك مصيره جيدًا. رغم كل الشر الذي أبداه نبسن في السنوات الماضية إلا أنني شعرت بالحزن لأجله. لا أدري لِمَ أحزن على شخص أبدى هذا القدر الكبير من الكره والحقد؟! هل هو قلب طيب أم ساذَج؟! لا أدري حقًّا.

كان نبسن يعرف طريق الخروج، وهم بالخروج بالفعل من مدرسة بيت الحياة، لكني وجدت نفسي أناديه:

- نبسن، انتظر.
- ماذا تريد؟
- انتظر لحظة.

- أنا أعرف جيدًا أنك سعيد جدًّا بما حدث لي اليوم.
- أنت مخطئ. أنا مشفق عليك. لا أحب أن يُطرد أحد من المدرسة لأي سبب.
- حقًّا؟ هل تتوقع مني أن أصدق هذا؟
- نعم، صدقني. لقد أشفقت عليكَ كثيرًا مما حدث معك.
- ادَّخِرْ شفقتك لنفسك. لا حاجة لي بها. دعني وشأني.
- حسنًا. أتمنى لك التوفيق في مستقبلك.
- دعني وشأني. لكن تذكر أنني سيكون لي شأن عظيم في يوم من الأيام. ليس من الضروري أن أكون طالبًا في مدرسة بيت الحياة حتى أكون ساحرًا ماهرًا. سأصبح ساحرًا ماهرًا رغمًا عنك وعن المعلمين في هذه المدرسة، ورغمًا عن جدِّك شخصيًّا. تذكر ما أقول جيدًا.
- لا مشكلة لديَّ في ذلك. أتمنى لك كل التوفيق في الحياة.

رمقني نبسن بنظرةِ شكٍّ كبيرة. تركته يمضي ومضيت أنا في الطريق الذي يؤدي لمنزلي. جزء كبير مني كان سعيدًا؛ لأننا تخلصنا من حيلِهِ وألاعيبه التي لم تكن تنتهي، ورغم ذلك بقي هذا الجزء بداخلي الذي كان يشفق عليه، ويتعجب من هذا المصير الغريب الذي لم أكن أتوقعه، وقطعًا لم يكن هو شخصيًّا يتوقعه. لكن بأي حال هذه هي الحياة. ليس بالضرورة أن تسير دائمًا كما نرسم لها.

عدت إلى منزلي واستقبلتني أمي، وجدتني أمي مشغولًا كثيرًا دون أن أتحدث أو أنتبه لوجودها أصلًا. كانت أمي تشغل بالها بي كثيرًا، ولا تحب أن تراني مهمومًا أبدًا، لدرجة تخنقني في بعض الأحيان. لكني أسارع بطرد هذا الشعور بالاختناق، فحبُّهَا كنزٌ لا يُعوَض.

- مالك يا ولدي؟
- حدث اليوم شيء غريب جدًّا يا أمي.
- ما الذي حدث؟
- أتذكرين نبسن الذي كنت أحكي عنه كثيرًا، وأحكي عن أذاه لنا جميعًا في مدرسة بيت الحياة؟
- نعم؟ ما مشكلته؟ هل تعرض لأحد منكم مرة أخرى؟
- كلَّا. لقد طُرد اليوم من المدرسة؛ لأنه لم ينجح في الاختبارات.
- يااااه؟! غريبٌ جدًا. كنت تتحدث دائمًا عن تفوقه ونبوغه.
- نعم يا أمي، هذا ما أتعجب له حقًّا. لا أدري ما الذي أصابه اليوم في الاختبارات.
- إنها عدالة الآلهة يا ولدي. الآلهة تحقق العدالة دائمًا. أنت أكثر شخص يعرف كم هو شخص مؤذٍ وحقود ولا يحب الخير لأحد.
- نعم يا أمي. صدقتِ. إنها عدالة الآلهة. قلتِ لي وأبي: إن هذا سيحدث في يوم من الأيام، وكنتُ أتشكك في ذلك.
- عدالة الآلهة تتحقق وتتجلى دائمًا يا ولدي. تذكر ما أقوله لك. لا تنسى أبدًا عدالة الآلهة.

أخذت أفكر كثيرًا فيما تقوله أمي. عدالة الآلهة. تُعجبني كثيرًا هذه الفكرة، فأنا لا أحب الظلمَ بكل صوره، حتى وإن لم أتعرض له شخصيًا فهو يصيبني بالحزن والغم. أما العدالة فتُشعرني أنني إنسان، وأن من حولي هم فعلًا بشر وليسوا حيوانات، وبعد سنوات طويلة أدركت أنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، وأن العدل صفة من صفاته التي تتجلى في كل شيءٍ حولنا.

الفصل السابع

حدثنا معلمنا عن المبادئ الأساسية للسحر. حدثنا عن "حكا" أي عن القوة الروحية الكامنة وراء السحر، وكيف أن أحدنا لن يكون ساحرًا أبدًا إذا لم يدرك أهمية هذه القوة، وهذا الإدراك هو الذي يساعدنا في الاتصال بهذه القوة التي نستطيع من خلالها ممارسة السحر. حكا هي القوة التي تمكننا من التواصل مع باقي الكيانات الإلهية أو "النترو".

حدثنا كذلك عن أن البصيرة أو الأخلاق الحميدة هي التي تجعل من الساحر ساحرًا، وأن الشرَّ لن يجدي نفعًا. هذه البصيرة تقْوَى كلما قَوِيَ اتصال الساحر مع قوة "حكا"، وهذا لن يحدث إلا عندما يخلص الساحر قلبه وينقيه من كل الشرور وكل ما يثير غضب الآلهة؛ لذلك كان استخدام السحر في القتل على سبيل المثال جريمةً لا تُغتفر.

عندما بدأ يتحدث المعلم في هذا الموضوع وجدتني تلقائيًّا أفكر في نبسن، وقلت لنفسي حينئذ: إن الآلهة هي التي منعته من الاستمرار في التعلم في مدرسة بيت الحياة؛ لأنه بهذه الطريقة لن يكون أبدًا الساحر الذي يتمكن من حماية بلدنا الحبيب مصر من الشرور، فهو نفسه مليء بالشرور، ولا يستطيع التخلص منها، وبعد ذلك أيضًا غيرت قناعاتي جراء عقيدتي الجديدة.

سألت معلمي:

- هل هذا معناه يا معلمي أن كلَّ السحرة طيبون، ويسيرون وفقًا لما تريده الآلهة، أي أنهم أقوام صالحون؟

فكر المعلم قليلًا في سؤالي ثم أجابني:

- لم يكن هذا هو الوضع دائمًا يا ولدي، فقد عرف تاريخُنَا بعض السحرة الذين لم يكونوا دائمًا مخلصين في عملهم، وكانوا يمتهنون السحر لأسباب شخصية خالصة، أو ربما لم يتمكنوا من أن ينقوا صدورهم من الشرور والأحقاد. لكن أعتقد أن الوضع الآن مختلف. أعتقد أنك أنت وزملاؤك ربما تكونون أفضل مَن أنجبتهم مصر من السحرة. أنا أشعر بهذا، وأنا لا أتحدث فقط عن القدرات السحرية والإلمام بالعلوم والكتابة المقدسة، لا، بل أتحدث أيضًا عن الأخلاق وسلامة الصدر.

أعجبني كثيرًا كلام معلمي حينئذ، وشعرت بالفخر، هذا لأنني ربما أكون فعلًا ضمن أفضل من أنجبَتْ مصرُ في مجال السحر. ربما يكون لي ولزملائي شأنٌ كبيرٌ في المستقبل. ربما نُحدث فارقًا في بلدنا الحبيب مصر، وقد كان، فقد أصبحتُ أنا وزملائي أيقونةً للتغيير الذي لا يمكن أن يخطر ببال أحد، ولكن بشكل مغاير تمامًا عما كان يتحدَّث عنه معلمنا.

واصل المعلم حديثه عن قوة "حكا"، وشرح لنا كيف نتواصل مع هذه القوة. هناك بعض التعاويذ التي علينا أن نتلوها حتى نستدعي هذه القوة. كل منا عليه أن يأخذ دوره في تلاوة التعاويذ أربع مرات؛ لأن هذا ما يُكسبها قوة السحر، ومِن ثَم انتظار وصول قوة "حكا". مع التأكيد على فكرة أن "حكا" أو القوة السحرية ليس الهدف منها على الإطلاق ارتكاب الشر، بل الحماية من الشر. علينا أن نهتم أيضًا بالطريقة التي نتلو بها تلك التعاويذ، سواء الطريقة التي ننطق بها أو الحركات التي نقوم بها مع تلاوة التعاويذ السحرية.

أكد لنا المعلم أيضًا على أن الاستعانة بـ"حكا" ليس معناها معاندة الآلهة، بل محاولة حماية البلد وحماية الملك من أي شرور ربما تسببها قوى الشر في العالم المحيط بنا. حدثنا أيضًا معلمنا عن بعض نصوص الحكمة المصرية وهي نصوص "مري كا رع" التي تدور كلها أو أغلبها حول

القدر، وكيفية أننا نحن المصريين نؤمن بالقدر والنصيب، لكن السحر الذي نمارسه نحن السحرة الهدف منه -كما قال لنا معلمنا سابقًا- هو الحماية من الشرور ليس إلَّا.

عندما نتلو هذه التعاويذ نصبح جميعًا "غرى حب" أي المسؤولين عن كتاب الطقوس.

الفصل الثامن

في أحد الأيام، عدت إلى منزلي من مدرسةِ بيت الحياة، ووجدت أبي في حالة لم أعهد أن أرَهُ عليها قبل ذلك. كان يبدو عليه البؤس الشديد، وفي الوقت ذاته الغضب الشديد.

عندما رأيته سألته:

- مالك يا أبي؟ ما الذي يحزنك؟
- شيء عجيب يا ولدي يحدث من حولنا! أحاول أن أفهم ما الذي يحدث بلا جدوى.
- خيرًا يا ولدي؟
- هناك شخص يُدعى موسى ذهب لجدك اليوم.
- ماذا كان يريد؟
- ذهب هو وأخاه يدعوانِ جدك إلى عبادة "الله الواحد". أنا لم أفهم ما يقولان، ولا أعرف ما معنى "الله الواحد". لا أفهم كيف يكون الله واحدًا أصلًا. كل شيء في الكون له إله يتحكم به. الحياة لها إله، والموت له إله، والخير له إله، والشر له إله. كل شيء له إله.
- ومن الذي أرسلهما يا ولدي؟
- إنهما يدَّعيان أن "إلههما الواحد" هو الذي طلب منهما الذهاب إلى جدك ودعوته إلى عبادته.
- لحظة واحدة يا والدي. أليس مُوسى هذا هو الذي تربى في بيت جدي؟
- بلى، إنه هو.
- غريبٌ جدًّا! إن آسيا زوجة جدي كانت تحبه كثيرًا كأنه ولدها. لقد ربته ورعته وأنقذته من القتل؛ لأنها حُرمت الإنجاب، فما الذي يريده هذا الفتى إذًا؟!

- لا أدري يا ولدي. لكن ليس هذا الغريب فحسب، فقد أتى بسحرٍ أمام أعيننا جميعًا.

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) [القصص:32]

- أتذكر أيضًا يا والدي أنه قتَل أحد المصريين وهرب ثم عاد مرة أخرى، فما الذي أعاده؟ لقد كُنَّا على وشك أن نقتص لروح المصري القتيل منه لكنه فَرَّ هاربًا، فكيف يعود بعد هذه السنوات الطويلة؟
- لا أدري يا ولدي، ولا أفهم شيئًا.

انسحبْتُ بهدوءٍ وتركتُ والدي يفكر في هذه الأحداث الغريبة. دخلت غرفتي أنا أيضًا وأخذت أفكر فيما قاله والدي. كنت صغيرًا حين سمعْت عن قصة موسى وعن قصة قتله للمصري وهروبه سريعًا. لكنني حينئذٍ كنت أتعجب جدًّا من جرأتِهِ على قتل مصري! كنت أتعجب من هؤلاء "العبرانيين" الذين يعيشون بينَنَا. يأكلون من خيرنا ويعيشون بيننا في سلام ثم يقتلوننا. يا له من شيء عجيب حقًّا!

خطرت ببالي بعض الأسئلة في ذلك الوقت: ترى هل كان موسى هذا يعيش في منزل جدي وهو يُضمر له الشر طَوَال الوقت دون أن يشعر به أحد؟ كيف كان شعوره تجاه جدي وتجاه زوجته؟ وأنا في زيارة لمنزل جدي في إحدى المرات لمحتُه سريعًا، كان فتى قويَّ البنية، مفتول العضلات، لكن لم يبدُ عليه أي ملامح شر. لم يبدُ لي أنه شريرٌ على الإطلاق. كيف يُمكن لشخص عاش في أمن وأمان بين مجموعة من الناس أن يقتل أحدهم، وهم الذين كانوا يأوونه ولم يؤذوه؟

الفصل التاسع

توجهت في اليوم التالي إلى مدرستي. عمري الآن 18 عامًا، وهي سنٌّ يُسمح لنا فيها بممارسة السحر. أوشكنا على التخرج والالتحاق بمعبد الكرنك في المدينة. كان حديث المدينة وحديث المدرسة والحديث السائد في كل مكان بالطبع ما حدث من موسى، وما أقدم عليه من السحر.

حدثنا المعلم عن السحر الذي أتى به موسى، وقال لنا إن هذا النوع من السحر لم يمر على بلدنا في يوم من الأيام، ولا بد أنَّه تعلم هذه الحيل السحرية من بلد آخر، ربما كانت "كوش[1]" مثلًا التي كان سحرتها يعاندون سحرة مصر كثيرًا.

شرح لنا كيف أن موسى أدخل يده في جيبه فخرجت لونها أبيض مخالف لباقي لون بشرته لكن دون بَرَص[2]، وكيف أن موسى أيضًا أتى بحيلة العصا، فقد ألقى عصاه فإذا هي ثعبان يسعى بين كل الحاضرين. تذكرتُ يومي الأول والاختبار الذي تعرضت له في مدرسة بيت الحياة، وكيف أتيتُ بهذه الحيلة التي علمني والدي إياها.

وقتها قُلت لنفسي: إن موسى لا بد أنه ساحرٌ عتيد السحر، وإن الذين استعانوا به من أعداء مصر الذين يريدون أن يضروا بمصر وبملكها لا بد أنهم سكان مملكة كوش، أو أي مملكة أخرى تطمع في ملك مصر، وفي سذاجة استكملت حديثي لنفسي قائلًا: إن هذا دورنا كسحرة حماية مصرنا الحبيبة من شر موسى، وهذا ما تحدَّث به معنا المعلم بالفعل.

1- كوش هي النوبة قديمًا.

2- البرص مرض مناعي يفقد فيه بعض مناطق الجلد المادة الصبغية.

قال لنا المعلم يومئذ:

- استعدوا، أتوقع أن يستدعيكم الملك قريبًا للدفاع عن مصر من خطر السحر الذي تواجهه، فأنتم جنود هذه المعركة وأنتم لها.

تبادلت النظرات أنا وسنحم الذي كانت علاقتي به قد توطدت، وأصبحنا صديقين مقربين جدًّا لا نفترق تقريبًا طوال الوقت، وفهمت من المعلم أن الفترة المقبلة ستكون مليئةً بالمفاجآت والمواقف الحقيقية التي لم نمر بها بعد كسحرة في مدرسة بيت الحياة.

قرر المعلم تكثيفَ الحلقات الدراسية حتى نتمكن من التخرج من المدرسة، وننضم إلى جيش السحرة الذي سيدافع عن مصر الحبيبة من شرور موسى وأخيه هارون، أو هكذا على الأقل ما أفهمنا إياه معلمنا.

أصبحنا نتدرب بشكل مكثف على الحيل السحرية، وأصبحنا ماهرين في استدعاء قوة "حكا" لنستعين بها في كل أعمالنا السحرية، كما أصبحنا على اطلاع تام بالكتابات المقدسة؛ لنعرف كل أسرار الخلق ونصبح بهذا في أعلى قمة المعرفة بكل شيء في هذه الحياة، وليس السحر فقط.

وتكرر هذا كل يوم، وكان المعلمون يأخذوننا كل يوم إلى خارج المدرسة كي نتدرب بشكل عملي. كانوا يجعلوننا في مواجهة السحرة الأكبر سنًّا ويختبرون قدرتنا على الإتيان بسحرٍ ماهرٍ والدفاع عن أنفسنا من الشرور والأذى، وكذلك الدفاع عن أنفسنا.

كان مطلوب من كل منا أن يحمي نفسه وزملاءه من السحر الذي يأتي به السحرة الكبار، فهم سحرة المعابد وكهنتها، ولا شيء يعجِزون عنه.

أصبحت حيلة الحبال التي تتحول إلى ما يشبه الحيات هي الحيلة الأثيرة التي صرنا نتدرب عليها كثيرًا هذه الأيام. كنا نأتي بمادة ثيوسينات الزئبق الثنائي المؤكسدة وندهن بها الحبال جيدًا ثم نشعل بها النار دون أن نلفت لنا الأنظار؛ حتى يظهر للناس أن هذه الحبال تتحول بالفعل إلى ثعابين دون تدخل منا، بل بمجرد السحر الذي نأتي به، وبهذا كنا نمزج بين معرفتنا العلمية وبين استعانتنا بقوة "حكا" التي كانت تساعد على جعل الناس يقتنعون بما نقوم به من سحر دون أن يفكروا كثيرًا.

ثم جاءت اللحظة الفارقة، أو هكذا أفهمنا معلمونا، ولا بد أن يمر كل واحد منا بها قبل التخرج، فمن الضروري أن يجتاز كل منا على حدة اختبار "الموت الطقسي"، أو "الميلاد الروحي"!

الفصل العاشر

لم يكن أي منا يعلم ما الذي يحدث في الغرفة المغلقة التي يتم بها هذا الاختبار الحاسم القاسي، الذي لا بد أن يمر به حتمًا كل ساحر يطمح في أن يكون ساحرًا يدافع عن مصر الحبيبة.

كان يحين دَوْر كل منا، وكان السحرة يأخذون من يخضع للاختبار في صمت إلى الغرفة المجهولة المخيفة، وجاء دور زملاء آخرين لي من دفعة السحرة في بيت الحياة، لكننا لم نكن نرى أيًّا من زملائنا بعد انتهاء الاختبار. كان هذا من المحرمات تمامًا.

ثم جاء دوري! شعرت أن الأرض تميد بي. كنت خائفًا جدًّا لدرجة لم أعهدها في نفسي من قبل، فلم أعتد على مشاعر الخوف تلك، فكنت أظن نفسي جسورًا شجاعًا لا أهاب شيئًا أيًّا كان أبدًا، لكن اتضح أن في هذه الدنيا أمورًا نجهلها تمامًا، وربما هذا الجهل هو مصدر أكبر خوف نشعر به.

رفع معلمي صوته مناديًا:

- سي أوزير، تعال..

حاولت أن أَزْدَرِدَ رِيقي، لكني وجدت حلقي متحجرًا كأنني كنت أبتلع الحجارة طَوَال هذه الساعات، وبدأ قلبي يدق بشدة لدرجة آلمت صدري. حاولت أن أبدو في مظهر من لا يهمه شيئًا، **وأجبته قائلًا:**

- حاضر يا سيدي، أنا قادم.

أخذني المعلم إلى هذه الغرفة المشؤومة التي كانت تخيفنا جميعًا؛ لأننا كنا نعلم أن ما يحدث بداخلها مجهولٌ تمامًا، ولا أحد يعرف عنه شيئًا. فتح باب الغرفة ثم أوصد الباب وراءه بعد أن دخلتُ أنا.

ألقيت نظرةً سريعةً على الغرفة، فلم أجد فيها ما يخيف على الإطلاق، لا يوجد سوى فراشٍ بسيطٍ عليه أغطيةٌ قطنيةٌ بيضاء. طلب مني معلمي أن أتمدد فوق الفراش. أطعته على الفور ونفذت ما طلبه مني. رفعت رجلي اليمنى وأصبح نصف جسمي فوق الفراش، ثم رفعت رجلي الأخرى واستلقيت تمامًا على ظهري.

أخبرني المعلم أنه سوف يجعلني أتناول شرابًا ضروريًّا جدًّا في هذا الاختبار. فائدة هذا الشراب هو التهدئة؛ حتى لا أَتَوَتر وأتمكن من خوض كل هذه الطقوس الصعبة بكل سهولة ويسر. جلست نصف جلسة فوق الفراش حتى أتمكن من ابتلاع هذا الشراب. أنهيت كل ما كان في الكأس التي يوجد بها الشراب. كان مذاقه غريبًا جدًا، فقد كان مُرًّا ومع ذلك كان لذيذًا جدًّا، وكنت أرغب في شرب المزيد، لكن المعلم أشار لي بأن هذه هي كل الكمية المطلوب مني شربها.

استلقيت على ظهري مرةً أخرى، وبدأت أشعر بالْخَدَرِ يسري في جسمي كلِّه، فكنت أرى السقف الذي يعلو الغرفة بلونه الترابي جيدًا، ومع ذلك شعرت أنني دخلت في نوم عميق. لم يكن نومًا عاديًّا، فقد كانت عيناي مفتوحتين، ومع ذلك كنت في حالةٍ غريبةٍ لم أَمُرَّ بها من قبل، **وعلمت فيما بعد أن كل ما حدث لي كان فقط بسبب الشراب الذي تناولته، ولم يكن بسبب أي قوًى خارقة أو سحر.**

شعرت أن روحي تفارقُ جسدي، بل تصورت أنني أرى طيفًا يشبهني يخرج من جسمي، فتتبعت هذا الطيف ورأيته يخوض مغامرات ويرى عوالم غريبة وعجيبة، وكل هذا وأنا راقِد على

هذا الفراش أتصبب عرقًا غزيرًا، وكل ما كنت أشعر به هو أن يدًا تحاول أن تجفف عرقي بين الحين والآخر. ما رأيته في هذه العوالم لا يمكن أن يخطر على ذهنِ بشرٍ.

الفصل الحادي عشر

في هذه الحالِ التي تشبه الغيبوبةَ رأيت نفسي، أو طيفي بمعنى أدق، وهو يمر ببوابة ضخمة جدًّا، كان يقف حارسًا عليها الإله أنبو (أنوبيس). كان شكله يثير الرعب، فقد كان ضخمًا للغاية، أو كنت أنا ضئيل جدًّا أمامه، وكأنني نملة صغيرة أمام عملاق هائل. **تحدث معي بنبراتِ صوتٍ مدوٍ هزتني بعنف قائلًا:**

- من أنت؟
- أنا سي أوزير.
- ما الذي أتى بك إلى هنا؟
- لا أدري.
- إلى أين أنت ذاهب؟
- لا أدري.
- كيف لا تدري؟ كيف تصل إلى هذه المرحلة ولا تدري كيف أتيت، أو إلى أين أنت ذاهب؟
- لا أعرف شيئًا. أنا تحت الاختبار. أنا ساحر تحت التمرين.
- حسنًا. يمكنك العبور من هذه البوابة. عليك أن تظل تسير في خط مستقيم إلى أن تقابلك البوابة الأخرى. رحلة ممتعة يا سي أوزير.

اجتاز طيفي البوابة العملاقة، ومررت بأنبو العملاق أيضًا، وكانت ترتعد فرائصي أو كانت هذه هي حال طيفي، وعملًا بنصيحة أنبو ظللت أمشي في خطٍّ مستقيم، وظللت أسير لفترة لا أعلمها بالضبط، وبينما أنا أسير وجدت ما كنت أحسبه وأخافه، بدأت الكائنات الغريبة في

الظهور، إنها الكائنات التي تسكن الـ"دوات" أو العالم السفلي، والتي كثيرًا ما حدثنا عنها معلمونا.

رأيت مخلوقًا يشبه الأسد، لكنه عملاقٌ جدًّا وعيناه حمراوان، وكل خصلة في شعر لبدتِهِ بها جمجمة إنسان. كان يركض نحوي بسرعةٍ كبيرةٍ على أربع أزواج من الأطراف، اثنان منها يشبهان أطراف الأخطبوط، والاثنان الآخران أطراف أسد عادية. كان يمسك في أحد الأطراف التي تشبه أطراف الأخطبوط سلاحًا أبيضَ هائلًا لم أرَ مثلَه من قبل. كان نصل هذا السلاح متفرعًا إلى أربع، كل فرع منها يتفرع إلى أربعة أخرى. كان يريد أن يقضي عليَّ بهذا السلاح.

تذكرت التعاويذ التي تعلمتها في مدرسة الحياة وبدأت بالفعل أتلوها، كنت أكررها أربع مرات وأنطقها بطريقة معينة كما تعلمنا في المدرسة حتى تستطيع صد هذا الكائن. كان زئيره يملأني رعبًا وجزعًا، لكنني حاولت أن أتمالك نفسي وأسيطر على خوفي، وبالفعل تمكنت من جعل هذا الكائن يختفي تمامًا. أخذت أنظر يمينًا ويسارًا بحثًا عنه فلم أجده في أي مكان.

واصلت المسير في خطٍّ مستقيمٍ، وكان صوت أنفاسي المتلاحقة مرتفعًا جدًّا، وكأنني ألفظ أنفاسي الأخيرة، واصلت السير وكنت أكثر ثقة في نفسي وفي قدراتي هذه المرة، ومرةً أخرى اعترضني كائن غريب جدًّا ينفثُ النار من فمه. كان رأسه يشبه التمساح الضخم، وجسمه جسم غوريلا عملاقة كثيفة الشعر. استعنت بالتعاويذِ مرة أخرى وبالطريقة ذاتها، فاختفى هذا الكائن من أمامي.

أكملت مشواري الغريب وسط أشجارٍ متشابكة الأغصان ومخيفةٍ للغاية، وكان هذا الممر يعلوه القمر، لكن أغصان تلك الأشجار تخفي ضوء القمر بصورة شبهِ تامة. كنت أظن أنني نجوْتُ، وأنني سوفَ أجتاز الاختبارَ أخيرًا، لكني وجدت أمامي مرةً أخرى ذلك الكائن الذي

يشبِهُ الأسدَ، وفاجأني هذه المرة من ورائي، وسدد لي ضربةً بسلاحه الفتاك على رقبتي، ففصل رأسي عن جسدي، استدرت لأُواجِهه فعاجلني بضرباتٍ متتاليةٍ متلاحقةٍ حتى مزقني إلى أشلاء.

وجدت أنني لم أَمُتْ رغم كل هذا التمزيق، ظلَّ رأسي سليمًا رغم أنه فصلَهُ عن جسدي، وبدأ رأسي المقطوع يتلو التعاويذ التي من المفترض أن تقضي على هذا الكائن وتحميني، فقرأت –أو رأسي قرأَ– التعاويذ، فبدأ جسدي يعود إلى سابق عهده، واختفى هذا الكائن المرعب إلى الأبد، ونهضت بعد أن اجتمعت أشلائي ورأيت أخيرًا البوابة الأخرى التي وجدت عندها أنبو، **وجدت أنبو عند هذه البوابة أيضًا فرفع يده مرحبًا بي قائلًا:**

- لقد نجوت.

الفصل الثاني عشر

وجدت من يهزني بشدة، شعرت بيدٍ تمسحُ عرَقي الذي كان يغرق الأغطية تحتي، وشعرت مرة أخرى بمن يهزني بقوة، **ويقول لي:**

- سي أوزير.. سي أوزير.. استيقظ.. لقد اجتزت الاختبار.. استيقظ يا تلميذي الناجح.

حاولت أن أنظر لمن يقف إلى جوار الفراش الذي أرقد عليه بعينين نصف مفتوحتين، فقد كانت عيناي تنفتحان ثم تنغلقان بسرعة، ظللت على هذه الحال حتى تمكنت أخيرًا من فتح عينَيَّ. وشيئًا فشيئًا فتحتهمَا تمامًا فوجدت أمامي معلمي، وكان يمسح بيده على جبيني ويديَّ ليجفف عرقي الغزير. استيقظت وشعرت بآثار عرقي تُغرق الأغطية التي أرقد فوقها. رفعت رأسي وأنا أرقد فرأيت فوقي "جعرانًا" وضعه المعلمون فوق جسمي حتى يساعدني على العودة للحياة. حاولت النهوض عن الفراش، **لكن المعلم قال لي:**

- لا تتعجل يا ولدي. أنت بالتأكيد متعبٌ بعد هذه الرحلة الشاقة. قم برفق وبهدوء ودون أن تتعجل.

عملًا بنصيحة معلمي، استدرت إلى اليمين ببطء شديد، جففت عرقي الذي يعلو جبهتي، حاولت أن أقيم جسمي من فوق الفراش، أنزلت القدم اليمنى ثم اليسرى فأصبحتا تصلان إلى الأرض أخيرًا. حاولت أن أستجمع كل قواي لأقف على قدمي. باءت أول محاولة بالفشل فوجدتني أهوِي على الفراش مرةً أخرى رغمًا عني. أعدت المحاولة فنجحت هذه المرة، ووقفت على قدمي.

أمسك معلمي بيدي ليساعدني على السير، واستندت بقوة إلى يده، فقد كنت سعيدًا أن أجد ما أستند إليه في حالة الضعف تلك التي انتابتني. **سألت معلمي**:

- ما الذي حدث؟
- من المفترض أن أسألك أنا: ما الذي حدث؟
- هل ما رأيته حقيقة أم خيال يا معلمي؟
- ما الخيال إلا جزء من الحقيقة يا بني.
- لا أفهم. هل كنت أحلم؟ أم أن ما رأيته حدث لي بالفعل؟
- قُصَّ لي ما رأيتَه.
- رأيتُ كائناتٍ غريبةً جدًّا تهاجمني، ولا أعرف سبب هذا الهجوم، هاجمتني مرةً ومرتين وثلاث مرات، وفي الثالثة تمكنت بالفعل من تمزيقي إلى أشلاء، ثم قرأَ "رأسي" المفصولُ عن جسدي التعاويذَ التي تعلمتها في المدرسة، وأعادت هذه التعاويذ جسمي إلى ما كان عليه مرة أخرى. عدت قطعة واحدة واجتزت البوابة الأخرى.
- هذا رائع يا بنيَّ! لقد اجتزت الاختبار بنجاح ساحق! أصبحت الآن "آخ" أي: روحًا موصولةً بالنور الإلهي. أنت الآن رسميًّا من جيش سحرة الملك الذي سيدافع عن مصرنا الجميلة من الأعداء، ومن هؤلاء الدخلاء الذين يريدون تغيير معتقداتنا وديننا لشيء لم نسمع به من قبل.
- حقًّا يا معلمي؟ هذا أمرٌ يسعدني للغاية. هذا ما كنت أحلم به طَوال حياتي.
- أنا سعيد لأنك حققت حلمك، وسعيد لأنك بالفعل من أكفأ السحرة على الإطلاق. سيكون لك شأنٌ كبيرٌ يا بني في يوم من الأيام.

- شكرًا يا معلمي هذا أملي في الحياة.

كنت سَاذَجًا جدًّا وقتئذٍ لأنني كنت أتصور أن ما رأيته من هَلاوس كانت حقيقة، وأن هذه الكائنات الخرافية كانت تطاردني بالفعل. فهمت لاحقًا أن الكلام الكثير الذي كان يحكِيه لنا معلمونا عن هذا العالم الآخر والكائنات التي يقابلها الساحر وقت هذا الاختبار هو الذي أوحى لي بكل هذه الرؤى العجيبة، وأنا تحت تأثير هذا المشروب المسكر.

في ذلك اليوم عدت إلى البيت شبه طائر من فرط السعادة، كنت لا أستطيع أن أنتظر كي أخبر أبي وأمي بما حدث، وبما تم في المدرسة، والاختبار المذهل الذي اجتزته بنجاح.

الفصل الثالث عشر

بعد اجتيازي لاختبار مدرسة بيت الحياة، وأصبحت رسميًا أحد سحرة جدي الملك، بدأ موضوع نبي الله موسى يتصاعد بشكل كبير، فترددت أنباء عن أن موسى يدعو عامة الناس إلى الدين الجديد، أي دين التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له.

وجدت تحركاتٍ مريبَة نوعًا ما، فقد رأيت أن هناك صرحًا[1] شرع العمال في بنائه، عرفت حينئذٍ أن هذا الصرح يرغب من خلاله جدي أن يحاول أن يرى إلهَ موسى كما يُطلق عليه أي الله سبحانه وتعالى. أدركُ الآن كم كانت فكرةً ساذَجةً وتافهةً! لكن في ذلك الوقت أبهرتني تلك الفكرة جدًّا.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) (غافر: 36 - 37)

كنت أذهب كل يوم تقريبًا لزيارة هذا الصرح، ولِكَي أتابع سير العمل أيضًا من بعيد دون أن يلحَظَنِي أحدٌ. لقد كنت أنظر إلى هذا المبنى شاهق الارتفاع منبهرًا بقدرتنا نحن المصريين القدماء على التشييد والبناء.

1- ليس هناك ما يؤكد طبيعة هذا البناء الذي أمر فرعون بتشييده لرؤية الله سبحانه وتعالى، لكن أحد الباحثين يشير لوجود بقايا هذا الصرح في الأقصر كما هو موضح في الصورة، كما أن هذه هي القصة التي تداولها المصريون لأجيال متعاقبة، ولكن لا توجد أدلة علمية على صحتها.

وفي أحد الأيام، وقفت أسفل هذا المبنى الشاهق الارتفاع، ووجدتني أنظر إليه كلِّه من أسفل لأعلى، وحاولت أن أصل إلى نهايته فتمكنت من ذلك بصعوبةٍ بالغةٍ، فقد كان مرتفعًا للغاية، لكني مع ذلك وجدت أننا مَهْمَا فعلنا لن نبلغ عنان السماء.

حدثتني نفسي قائلة:

- ما هذا؟ مهما فعلنا لن نتمكن أبدًا من الوصول إلى السماء. هل يظن جدي حقًّا أنه سيستطيع الوصول للسماء؟! أفلح إن صدق.

لا أدري، كانت هذه الليلة إيذانًا بتغيرٍ كبيرٍ في موقفي تُجاه كل شيء. تُجاه السحر الذي تعلمته، تُجاه أبي وجدي، تُجاه بلدي، تُجاه موسى، تُجاه الدين الذي يدعو إليه. لا أدري بالتحديد سبب هذا التغيير، لكني شعرت به بشكلٍ مفاجئٍ، وكأن الله سبحانه وتعالى قذف هذه الخاطرة في صدري؛ كي ينقذني من النار ومن بئس المصير.

لا أدري بالتحديد ما الذي حدث، لكن ما أدركه جيدًا أن حالي اختلف تمامًا بعد هذه الليلة، لكني قررت أن لا أحدث به أحدًا قط، فلم أجرؤ حينئذ على أن أتحدث مع أي أحد عن ما يجول بخاطري، حتى أمي أو أبي، حتى صديقي سنحم.

وأخيرًا انتهى بناء هذا الصرح، وأوقد هامان النار على هذا الصرح الطيني حتى يصبح طوبًا متماسكًا، وأصبح هذا البناء الشاهق جاهزًا تمامًا للتسلق.

الفصل الرابع عشر

قرر جدي الملك أن يجمع الناس حوله من كل طيبة (الأقصر)، حتى يثبت لهم كذب موسى، فأمر بالمنادين أن يجوبوا شوارع طيبة؛ ليعلنوا عن هذه الأخبار: على كل الناس التجمع عند هذا الصرح الذي يقع في نخن[1].

وفي اليوم المتفق عليه، تجمعت أعدادٌ كبيرةٌ جدًّا بالأمر عند الصرح، ومنذ الصباح الباكر بدأ أهل البلد يتوافدون على المنطقة، وفي وقت الظهيرة عندما اعتلت الشمس وسط السماء قرر فرعون أن يبدأ الطقوس.

أمر العازِفِين ببدء العزف على الآلاتِ الموسيقيةِ إيذانًا ببدء مراسم تسلق الصرح، وتعالت الموسيقى وترددت أصداؤها في كل مكان، وكان لصوت الطبول خاصة وقع هائل.

توجه الملك إلى أسفل الصرح، وأشار إلى هامان كي يقترب منه حتى يتسنى له الاتكاء على يديه ليتمكن الصعود على الدرجات الأولى من الصرح، وبدأ بالفعل في الصعود على أول درجة، ولأن هذه الدرجة كانت مرتفعة قليلًا، كان الصعود عليها هو الأصعب.

بعد ذلك توالى الصعود على درجات الصرح درجة درجة، وكان المصريون يتابعون بأنظارهم الملك، كما كانوا يكتمون أنفاسهم من هول الموقف.

تنامى إلى علم المصريين ما حدث من موسى، وكيف أنه يدعو إلى دين جديد يريد أن "يبدل" به الدين المصري، لذلك كان الملك يرغب في أن يثبت للمصريين أنه على صواب وأن موسى كاذبٌ.

1- تعرف الآن باسم: الكوم الأحمر.

استمر الملك في الصعود وتسلق الصرح إلى أن اختفى تقريبًا عن الأنظار، ولأنه كان يومًا تكثر فيه الشبورة، فلم يكن من الواضح ما الذي يحدث في أعلى هذا البناء.

بعد فترة طويلةٍ جدًّا من الوقت قاربت على الأربع ساعات[1] بدأ الملك يظهر وهو يهبط من الصرح، وتعالت في هذه اللحظة أصوات المصريين وهي تسبح بحمد الملك، واستجابوا لإشارة من هامان كان معناها الهتاف بحياةِ الملك، فقالوا في صوت واحد كأنهم جوقة مدربة: "عاش الملك.. عاش الملك".

تبادل الملك التحية معَ جموع الشعب المصري التي كانت تنتظره بالأسفل منتظرين بشغف نتيجةَ هذه المغامرة التي قرر أن يخوضها من أجلهم، ومن أجل مصلحتهم ومصلحة البلاد كما أفهمهم هامان.

ظلت العيون تتابع الملك بكل شغف، وكان المصريون يقفون في ترقب بالغ وفضول قاتل لمعرفة ما الذي حدث بالأعلى، وكيف أمضى الملك هذه الساعات، وما الذي كان يحدث طَوَال هذا الوقت.

أشار الملك إلى جموع الشعب أن يلتزموا الصمت حتى يبدأ في حكاية ما حدث. **قال الملك:**

"شعب مصر العظيم، إنما جئتكم بنبأ يقين، كما ظننت تمامًا، ما موسى إلا ساحرٌ كذابٌ، وقد أَثْبَتُّ اليوم بنفسي كذبه، صعدت هذا الصرح حتى أرى الإله الذي يزعم موسى أنه ربه، ولكن كما توقعت لم أرَ أي آلهة مختلفة عن الآلهة التي نعرفها، لم أقابل بالأعلى سوى آمون،

1- عرف المصريون القدماء حساب الوقت من خلال طرق عديدة، منها: المزولة، والساعة الرملية.

تحدثت معه، وسألته: هل هناك إله واحد يتحكم في كل شيء كما يزعم موسى؟ كانت إجابته القاطعة الحاسمة هي: لا بالطبع، إن موسى كاذبٌ وساحرٌ، وأحذركم من الاستماع إليه وإلى ما يقول. تجاهلوا كل شيء يقوله لكم ولا تطيعوا أحدًا سواي. ما رأيته هو ما يجب أن تؤمنوا به، ولا دين لكم سوى الدين الذي أتبعه، هل تفهمون؟".

أشار هامان إلى المصريين مجددًا وتعالت أصواتهم مرة أخرى: "عاش الملك.. عاش الملك".

الفصل الخامس عشر

ما حدث في ذلك اليوم كان محيرًا بالنسبة لي، هل تمكن الملك حقًّا من رؤية الإله آمون؟! كيف إذَا لم يكن الصرح بهذا الارتفاع؟! وإذا لم يكن قد رآه، فهل من المعقول أنه كان يكذب؟! هل يكذب جدي؟! كيف وهو الملك؟! هل تكذب الملوك؟!

كانت هناك أسئلة كثيرة تدور في رأسي، ولم أتمكن قط من إسكاتها، لكنها كانت عذابًا بالنسبة لي، فقد كنت أريد أن أحصل على إجابات حتى يهدأ رأسي الْمُتعَب، ولذلك قررت أن أقوم بالخطوة التي لولاها لكنت قد أصبت بالجنون، **قررت أن أقابل نبي الله موسى!**

بدأت التخطيط، كيف يمكن أن أقابل موسى دون أن ينتبه لي أحد. كنت أعرف جيدًا المكان الذي يسكنه. كانوا حريصين على إبلاغنا دائمًا بأماكنه حتى يظل تحت أعيننا نحن السحرة؛ بحيث نتمكن من حماية مصر منه ومن "شروره".

حتى عندما يغير مكانه، يظلون يتابعونه ويتتبعون أخباره حتى يتمكنوا من معرفة مقر إقامته الجديد.

عرفت المكان الذي يعيش به، فقد كان يبعد عن منزلنا بمسافة ساعتين من السير على الأقدام، ولم يكن عندي أي مشكلة في القيام بمثل هذه الرحلة لمعرفة الحقيقة. كانت الحقيقة هي كل ما يهمني في واقع الأمر.

أقنعت والداي أنني في هذه الليلة أريد الخروج ليلًا من المنزل؛ لأقوم بجولة تفقدية بصفتي أحد السحرة الذين يقومون على حراسة مصر من قوى الشر، ولم أكن بالطبع أريد أن أجعلهما يشعران بأي ريبة، فهما والداي رغم كل شيء، وأنا أحبهما جدًّا.

بدأت في تنفيذ خطتي، فخرجت ليلًا بعد أن ساد الهدوءُ كلَّ البلدة. قررت التخفي حتى لا يصادف أن يراني أحدهم وأنا أدخل المكان الذي يقيم فيه نبي الله.

أخفيت وجهي جيدًا وارتديت عباءةً مختلفةً تمامًا عن أزياء السحرة؛ حتى لا أدع أي مجال للشك، وظللت أتلفت حولي يمينًا ويسارًا؛ لأتأكد أن ما من أحد يراقبني أو يتابعني.

وأخيرًا وصلت إلى المكان الذي يقيم فيه موسى. طرقت الباب فلم يجب أحد. أخذتُ أطرق الباب كثيرًا؛ لأنني أعرف أن الوقت قد تأخر، وقطعًا مَنْ بالداخل في الغالب في سبات عميق، وإن كانوا مستيقظينَ فقطعًا لن يفتحوا الباب بسهولة بأي حال.

وبعد بُرْهة، فُتِحَ البابُ أخيرًا، والذي فتح لي الباب لم يكن بأي حال نبي الله موسى، فأنا أتذكر شكله جيدًا، وإنما خادمه يوشع[1].

- مرحبًا.
- مرحبًا. مَن أنت؟ ولماذا تطرقُ علينا الباب في هذا الوقت المتأخر؟
- اسمي سي أوزير.
- سي أوزير؟ أنت حفيد الملك؟
- نعم أنا.
- وكيف يمكن أن أساعدك؟ ماذا تريد في هذا الوقت من الليل والناس نيام؟
- كنت أطمع في الحديث مع موسى.

1- يوشع بن نون هو خادم موسى عليه السلام، وهو من أنبياء بني إسرائيل أيضًا.

- ولكني لن أستطيع إيقاظه الآن، فقد نام أخيرًا بعد أرق استمر لفترةٍ طويلةٍ، ولا أستطيع إيقاظه.

بَدَا عليَّ الإحباطُ الشديدُ، فقد كنت أريد مقابلته بشدة حتى أستريح، وحتى أتمكن من إسكات أفاعي الشك التي تلدغ عقلي بين الحين والآخر، هذا ما بدا واضحًا عليَّ بشدة. **هنا، قال يوشع:**

- هل هناك شيء أستطيعُ أنا القيامَ به بدلًا منه؟ أستطيع أن أقوم بأي شيء تريده. تفضل. يمكنك الدخول.
- شكرًا لك.

دخلت من الباب ثم جلست على أرضية المنزل. ترددت كثيرًا في الحديث، لكني كنت أدرك جيدًا أن هذه فرصة لن تُعوَض، ربما يكون لدى يوشع ما يثلج صدري ويهدئ من روعي. **اخترق يوشع حاجز الصمت الذي ساد فترةً لا بأس بها قائلًا:**

- هل أستطيع أن أساعدك؟ قل لي ولا تخف.
- حسنًا، أنا كنت أريد التحدث إلى موسى كي يطمئن قلبي، كنت أريد أن أتأكد بنفسي أن لديه ربًّا واحدًا غير الأرباب التي نعبدها نحن، فأنت تعرف حساسية موقفي. كانت أسرتي تعدني كي أكون أحد السحرة التي تحمي مصر من الشرور، وبدأت بالفعل هذا العمل، وسمعت عن السحر الذي أتى به موسى ورأيت الملك وهو يصعد على الصرح وسمعته وهو يتحدث، أريد أن أفهم كل هذا. هل أرسل إِلهٌ ما موسى حقًّا؟
- بالطبع كنت أَوَدُّ لو أن نبي الله موسى هو الذي يجيبك، ولكني سأحاول، فعندما قتل موسى بالخطأ أحد المصريين، كما تعلم القصة بالقطع توجه إلى مديَن في الشام، وتزوج

من ابنة رجل صالح اسمه شعيب، وبعد سنواتٍ طويلةٍ بلغت نحو عشر سنوات كلمَ الله سبحانه وتعالى موسى وأخبره أنه بعثه رسولًا، وطلب منه أن يدعو فرعون والمصريين إلى عبادة الله الواحد الأحد.

- .....
- هذا ما حدث بالفعل، وطلب موسى من الله سبحانه وتعالى أن يرسل معه أخاه هارون حتى يكون سندًا له، ويساعده في مخاطبة القوم؛ لأنه أفصح لسانًا منه، وقد كان.
- أنا لا أجد ما أقوله حقًّا. كنت أشعر أن هناك شيئًا ما غير مقنع في كل ما يحدث حولي، بداية بما يقوم به جدي من حيل، ونهاية إلى الآلهة الكثيرة العديدة التي نعبدها في مصر. أشعر بِحَيْرَةٍ كبيرةٍ وعدمِ راحة أيضًا مما يحدث حولي. أشكرك يا يوشع. سوف أعود إلى منزلي الآن.

الفصل السادس عشر

عدت إلى منزلي بعد هذا المشوارِ العجيب، وكنت حريصًا أيضًا على التخفي حتى لا يراني أحد وأنا أخرج من بيت موسى، رغم أنه بعيد عن وسط المدينة، لكني كنت أخشى أن يتعرف إليَّ أيُّ أحد.

وجدت أمي وأبي في انتظاري على غير المعتاد، وشعرت بقلَقِهِما البالغ عليَّ رغم أنني لم أتأخر كثيرًا، فقد حاولت أن لا أتأخر كيلا أثير قلقهما أو ارتيابهما.

فتح لي الخادم الباب ودخلت، وقلتُ محييًا:

- طاب ليلكما. هل ما زلتما مستيقظَيْن؟ كنت أظنكما قد نمتما منذ فترة.

قال لي والدي:

- تأخرت يا سي أوزير. كنت أظنُّ الجولةَ التي ستقوم بها جولةً سريعةً. أعرف أنك جديد في مهنة الساحر، وأنك تريد أن تقوم بواجبك على أكمل وجه، لكني كنت قلقًا عليك.
- آسف يا والدي أنك شعرت بالقلق بسببي، وجدت الأحوال هادئة، وهذا شجعني أكثر على الاستمرار في الْمَهَمة؛ حيث لم أجد شيئًا خطيرًا أو شيئًا يدعو لعمل الساحر، فأحببت فقط أن أُكمل جولتي، خاصةً أن الجو كان رائعًا ومشجعًا.

ثم قالت لي والدتي:

- وكيف كان أول يوم في مهمتك التفقدية؟
- لا بأس به يا أمي. لا بأس به على الإطلاق، فكما قلت، لم أجد ما يعكر صفو هذه الليلة ذات الأجواء الرائعة، وكان كل شيء على ما يرام.

- أتمنى لو سارت كل الليالي بهذه الطريقة.
- أعتقد يا أمي أن هذه أمنيةٌ صعبةُ المنال.

ضحكْنَا جميعًا على ما قُلْتُ، ولكن بعد أن تركتهما ودخلت غرفتي، رقدت على فراشي وأخذت أفكر فيما سمعت من يوشع. كان يتكلم بثقة شديدة. كنت أتمنى أن أقابل موسى نفسه؛ لأني ظننت وقتها أني ربما لو رأيتُه وهو يتكلم كنت اكتشفت هل هو صادق أم كاذب، فكرت طويلًا فيما يمكن أن يحدث في الفترة القادمة. كيف ستحدث المواجهة بين جدي الملك وبين موسى؟! كنت أعلم جيدًا أن جدي لن يعجبه ما يقوم به موسى والدعوة التي يدعو المصريين إليها، فهو يريد أن يعبد المصريون اللهَ الواحدَ الأحد، وجدي يرى أنه صاحب الكلمة، وأنه الوحيد الذي من حقه أن يحدد ما الذي يعبده المصريون من آلهة.

فكرت أيضًا في فكرة الإله الواحد، وتعجبت وقتئذ منها، فقد كنا معتادين في مصر على وجود إله أو معبود لكل شيء، إله للحب، وإله للخير، وإله للشر، وإله للخصوبة، وإله للموت، وإله للحياة... كل شيء، كل شيء في بلدنا له المعبود الخاص به، واعتدنا هذا منذ القدم، ولكن يا للعجب! كنت أسمع من بعض الكهنة قصصًا قديمة عن وجود أقوام يدعون لعبادة الإله الواحد، فتحدثوا معنا نحن الطلبة في مدرسة بيت الحياة عن إدريس وعن يوسف. تحدث معنا أحد السحرة عنهما دون أن يُكثر من الحديث أو أن يذكر تفاصيل كثيرة، بل أنهى الحديثَ سريعًا عندما وجدنا نريد أن نعرف المزيد من المعلومات عنهما، فالحديث عن الحياة وعما هو موجود حولنا من أحوال الناس والآلهة والديانات المختلفة جزءٌ أساسيٌّ من دراستنا في مدرسة الحياة، لكن بشرط على المعلم أن لا يتحدث فيما قد يثيرُ أي مشكلة بينه وبين الملك، أو بينه وبين كبار الكهنة؛ لذلك قرر معلمنا إغلاق النقاش في هذا الموضوع سريعًا.

تذكرت وقتَئِذٍ كيف أن هذا الموضوع لفت نظري أنا وصديقي سنحم، وكنا تحدثنا وقتها عن قضية الإله الواحد، وتناقشنا أيضًا في أمر أمنحتب الرابع (أخناتون) الذي أراد أن يعبُد إلهًا واحدًا (آتون) على خلاف من سبقه من الملوك، تحدثنا عن هذه القضية بصفتها فكرة غريبة وغير مألوفة في مجتمعنا وفي بلدنا، على أننا لم نُسْهِب في الكلام، لكنَّ كلًّا منا كان يدرك أن صديقه يفكر في الموضوع بجدية.

الفصل السابع عشر

بعد سنوات حَدَثَ ما كنتُ أتوقعه بالضبط، فقد كنت أتوقع أن موضوع موسى لن يمر على خيرٍ، وأن هناك مواجهةً حتمية لا بد أن تحدث بين الطرفين، فظل موسى يدعو المصريين إلى عبادة الإله الواحد الأحد، ولا أخفِي عليكم أنني كنت قد اقتنعت بفكرة إله موسى، وقررت أن أعبد الله الواحد الأحد معه، وأن أكتم إيماني حتى عن أمي وأبي، فلم يكن بالإمكان أبدًا أن أظل على وثنيتي بعد كل التفكير الذي فكرت فيه، وبعد البراهين والأدلة التي رأيتها.

لم أتمكن من مقابلة نبي الله موسى بنفسِه؛ لصعوبة ذلك كوني حفيد الملك، لكني لم أعد بحاجة إلى ذلك، فقد كان كل شيء حولي يدعوني لعبادة الله الواحد الأحد، ويُسفِّه من الأوثان والوثنية، وعلمت أن قلةً من المصريين اتبعوا دِين موسى، ولكنهم كانوا يكتمون إيمانهم أيضًا. غير أن نشاط موسى في البلاد لم يكن خافيًا عن الملك، فقد كان يعرف كل شيء من خلال "البصاصين" الذين ينتشرون في أنحاء البلاد.

كان المصريون الذين يكتمون إيمانهم يحرصون حرصًا بالغًا على عدم لفت الأنظار، وكانوا يحاولون دائمًا عدم لفت انتباه البصاصين أو أي من أعوان للملك، فكانوا يتجنبون الحديث في هذا الأمر مع العامة أو فيما بينهم علانية، كما كانوا يتجنبون الاختلاط بالعبرانيين، أو الظهور في أي مكان قريب من الأماكن التي يظهر بها نبي الله موسى؛ حتى لا ينكشف أمرهم.

كثرت مقابلتي مع صديقي سنحم الذي أصبح هو أيضًا ساحرًا يكتم إيمانه مثلي، وتحدثنا في كل الأمور، فيما هو مطلوب منا كسحرة من الإتيان بالسحر، وفيما يمكن أن يحدث في المستقبل، كما تحدثنا عما وردنا من أخبار عن زميلنا السابق نبسن؛ **حيث قال لي سنحم في أحد الأيام:**

- هل تذكر نبسن يا صديقي؟
- نعم، أذكره جيدًا، فقد كانت تحدث بيننا الكثير من المواجهات.
- هل لديك أي أخبار عنه، خاصة بعد طرده من مدرسة بيت الحياة؟
- الحقيقة لا، لا أعرف عنه شيئًا منذ أن افترقنا.
- عرفت أنه أصبح يعملُ ساحرًا يأتي بأعمال بالغةِ الخطورةِ بسحره غير المشروع؛ كونه لم يتخرج من مدرسة بيت الحياة، والغريب في الأمر أنه أصبح مقربًا من هامان.
- لا غرابة في ذلك يا سنحم؛ فقد كنت أتوقَّع أنه سيصل في يوم الأيام إلى مبتغاه في أن يكون ساحرًا؛ ليعمل أي عمل سحري يقربه ممن يتولون أمر البلاد.
- حقًّا؟ وكيف عرفتَ ذلك.
- هل تذكر اليوم الذي ترك فيه المدرسة؟
- نعم.
- رأيت في عينيه تحديًا لم أره في حياتي قط، وأدركت وقتَهَا أنه لا يهدد ولا يهذي، وأنه يعرف طريقه جيدًا، وأن لديه استعدادًا أن يفعل أي شيء لكي يصل إلى مبتغاه، كما أنه كان لا يتورَّع عن إيذاء أي أحد في المدرسة كان يرى أنه يمكن أن ينافسه، حتى أنت إذا كنت تتذكر ما حاول فعله معك.
- نعم أذكر جيدًا.

بعد هذا النقاش، علمتُ أيضًا أن نبسن أصبح من أقرب المقربين من عمي "مرنبِتَاح" الذي كان كبيرَ الكهنة؛ حيث أصبح يستعينُ به في كل شيء، وأصبح هو دون الآخرين موضع ثقته. حتى أنا، أنا حفيد الملك وابن أخيه، لم يكن مرنبتاح يثقُ بي كثقته في نبسن. صحيح أنا كنت

موجودًا دائمًا في القصر الملكي، وكانوا يكلفونني ببعض مهام السحر لحماية مصر، لكن لم يكن هامان يجتمع بي، وكنت أشعر في قرارة نفسي بأنه لا يثق بي أصلًا.

لكن بأي حال كنت أعلم أن جدي يحبني ويحب أن يقربني إليه، لكنَّ مرنبتاح كان يتولى شؤون الحياة اليومية، وكان يهمس في أُذُن جدي كثيرًا، ويمدح في نبسن ويُثني عليه حتى يثق فيه أكثر وأكثر، كان هذا معناه سحب البساط من تحت قدمي شيئًا فشيئًا.

الفصل الثامن عشر

ازدادت الأحوالُ سوءًا، تعرض العبرانيون لتضييقٍ شديدٍ من المصريين خاصة البلاط الملكي والسحرة، ومن المفترض أنني كنت أشارك (ظاهريًّا) في درء مفاسدهم عن المجتمع المصري. نعم، كنت أتظاهر بذلك قدر استطاعتي.

تزوجتُ وأنجبتُ، لكني تحدثت مع زوجتي وأبنائي عن التوحيد، وطلبت منهم جميعًا أن يكونوا موحدين، وأن يَدَعوا الوثنية كليةً.

جاءت أخيرًا اللحظة التي كنت أخشاها كثيرًا، وأحسب لها ألف حساب، إنها لحظة المواجهة الحاسمة بين الملك وبين موسى، فقد طلب جدي الملك حشد كل السحرة المهرة في مصر، وكان يرى أن الحل الوحيد لإنزال الهزيمة بموسى هو الإتيان بسحر أعظم مما يأتي به، وكنت أشفق على جدي من النهاية الوشيكة؛ لأنني كنت متيقنًا من أن الله سينصر نبيه لا محالة.

انتشرت الأخبار أن الملك قرر أن يحشد كل المصريين يوم الزينة[1] أو يوم شمو (شم النسيم)، وهو اليوم الذي يحتفل به المصريون بالربيعِ، فينطلقون إلى الحدائق والأماكن التي يوجد بها نهر النيل، ويزينون منازلهم بالزهور، كما يتناولون الأسماك المملحة والخَضْرَوات الطازجة، وكان قرار الملك أنه لا بد من جمع المصريين في ذلك اليوم؛ كونه اليوم الذي يحتفلون فيه.

سرت الأخبار في طول البلاد وعرضها، وقرروا جلب السحرة من كل إقليم في مصر، خاصة بالطبع الأشمونين الذين كانت مدينتهم الأكثر ارتباطًا بالسحر والسحرة، فتجمع آلاف وآلاف من السحرة من أنحاء مصر استجابةً لدعوة الملك، وبدأ الإعداد للمواجهة الحاسمة في يوم شمو.

1- ليس من المؤكد ما هو يوم الزينة، لكن ربما كان يوم الاحتفال بما يُعرف حاليًا بشم النسيم.

وفي اليوم الموعود، يوم شمو، جمع مرنبتاح كل السحرة، وبلغ عددهم آلافًا مؤلفة، جمعهم حوله وطلب منهم أن يُنزلوا هزيمةً ساحقةً بنبي الله موسى، وأن يشحذوا الهمة، وأن يبلوا بلاءً حسنًا، فالملك يعتمد عليهم في حماية مصر من شرور موسى وأعوانه، كما قال إنه يثق فيهم ثقة عمياء، ويدرك تمامًا أنهم تدربوا جيدًا على كل الحيل السحرية، خاصة حيلة الحبال والحيات؛ لأنها الحيلة الشهيرة جدًّا لدى موسى.

وجاء جدي الملك كذلك، وعندما نظرت في وجوه السحرة وجدت أنهم شعروا بالرهبة والخوف من حضوره، فقد أدركوا تمامًا أن القضية ليست بالهزل، فقد وعدهم فرعون بمكافأة ماليةٍ سخيةٍ وضخمةٍ إذا تمكنوا من إنزال الهزيمة بموسى، وكرر على مسامعهم نفس كلمات الإطراء والتشجيع؛ حتى يبدأوا هذه المواجهة الحاسمة وهم على أهبة الاستعداد للقاء موسى.

بدأت العازفون في قرع الطبول إيذانًا ببدء المعركة الفاصلة بين فريق موسى، كما كان يطلق عليهم جدي الملك، وبين أبناء مصر. دخل نبي الله موسى إلى الساحة التي ستبدأ فيها المعركة، واختار مرنبتاح مجموعةً أوليةً من أمهر السحرة الذين أنجبتهم مصر؛ حيث اختار لهذه المعركة الأولية 20 ساحرًا، منهم كبار السحرة في معبد الكرنك، ومعبد آمون.

دخل موسى بقامته الطويلة وجسمه الممشوق رغم تقدم العمر به، ولم يبدُ عليه الخوف أو التردد، كنتُ أراه يتمتمُ بعباراتٍ غيرِ مسموعة، أدركت حينئذ أنه لا بد أنه يدعو ويصلي لله سبحانه وتعالى كي ينصره على هؤلاء السحرة الضالين.

سأل السحرةُ موسى إذا كان سيبدأ هو أم سيبدأون، هم فطلب منهم نبي الله أن يبدأوا هم، وبدأت هذه المجموعة الأولى من السحرة بالتحضير للحيلة السحرية، فكانت الحيلة الأثيرة بالطبع هي حيلة الحبال والعِصي التي تتحول إلى ثعابين.

بدأ السحرة بعناية شديدة يخرجون الحبال ويخرجون العصي، وكنت بالطبع أعرف جيدًا أنهم يحضرون مادة ثيوسينات الزئبق الثنائي المؤكسدة، ولكنهم كانوا حريصين على أن لا يلمح أحدٌ من الحاضرين ما يفعلون، فقد كانوا كذلك يرفعون أصواتهم بهمهمات ويتلون التعاويذ حتى يوهموا الناس بقدرتهم وبقوتهم، وكانوا يحاولون كذلك إرهابَ نبي الله موسى، لكن موسى كان يتابعهم في هدوء شديد.

وبدأ العرض..

اصطف السحرةُ جميعُهم، وبعد أن وضعوا الحبالَ والعصيَّ وحفروا لها حفرة في الرمال، ووسط التعاويذ والهمهمات أخذوا يسكبون مادة ثيوسينات الزئبق الثنائي المؤكسدة، وكان بعض السحرة يحاولون حجب السحرة الآخرين الذين يعملون على إشعال النار في هذه الحبال والعصي. اشتعلت النار في الحبال والعصي، وبدت وكأنها حيات تتلوى وتتثنى.

وكلما زاد التلوي كان السحرة يرفعون أصواتهم بالتعاويذ السحرية كي يرهبوا الناس وموسى أيضًا، وهنا بدَا على الملك الرضا تُجاه هذه الحيلة، ونظرَ نبسن إلى الملك نظرة الشخص الذي يحاول طمأنة مَن أمامه، ورأيتُ جدي الملك وهو يُومِئُ إلى نبسن إيماءةً تدل على الرضا.

وسمعت شهقات المصريين تتعالى وهم يرون هذه الحيلة التي كانت مبهرة حقًّا. حاولت النظر في عيون المصريين محاولًا فهم ما يشعرون به، وجدت نظرات الرعب والترقب في آن واحد، فقد بدا عليهم الخوف مما يرون أمامهم، وفي الوقت ذاته كان واضح جدًّا أنهم مترقبون لما سيحدث وكيف سيتصرف موسى.

وحان دور موسى.

انتقلت نظرات جموع المصريين إلى نبي الله موسى الذي كان يمسك عصاه التي أصبحَ يعرفها الجميع، وهنا رفع نبي الله يدَه التي تمسك بالعصا في الهواء ثم هوى بها على الأرض، فحدثت المفاجأة المدوية. لقد تحولت هذه العصا بقدرة الله سبحانه وتعالى إلى ثعبانٍ ضخمٍ جدًّا.

فزِعَ المصريون من منظر هذا الثعبان المخيف، وتراجعوا جميعًا إلى الوراء خطواتٍ كثيرةً، وكاد يدهس بعضهم بعضًا من فرط الهلع، وتعالت الصيحات والصرخات، لكنهم لم يهربوا أبدًا، بل بالعكس، وكأن أوتادًا ثبتتهم في الأرض التي يقفون عليها، وظلت أعينهم تتابع هذا الثعبان العملاق في جزَعٍ شديدٍ.

مَرَّ الثعبان على كل الحبال والعصي التي تحولت في نظر جموع المصريين إلى ثعابين صغيرة وابتلعتها جميعًا الواحد تلو الآخر، وهنا سمعت شهقة التعجب والاندهاش التي صدرت في صوت واحد، فلم يكن هذا ما يتوقعه المصريون بلا شك، فقد كانوا يتوقعون أن السحرة سينزلون هزيمة ساحقة بموسى وهارون، وأن الغلبة للملك ودين المصريين لا محالة.

الفصل التاسع عشر

لم يُكتب النجاحُ لجدي رغم كل الحشود التي حشدها، وألقيت نظرة سريعة عليه فوجدته غاضبًا أشد الغضب ومندهشًا أيضًا، فقد كان يظن أن الحشود التي حشدها والأموال التي وعد بدفعها كفيلةٌ بإنزال الهزيمة بنبي الله موسى. كم كنت أشفق على جدي في هذه اللحظة! أشفق عليه من غروره ومن جهله أيضًا! فإرادة الله لا تفوقها إرادة، ولكنه لم يكن يعلم شيئًا.

في تلك اللحظة المهيبة، في اللحظة التي ابتلع فيها الثعبان الضخم الحبال والعصي وكل ما أتى به السحرة وجدت أن المجموعة الأولى من السحرة التي شاركت في هذا السجال سجدت أمام موسى، ليس هذا فحسب، بل أيضًا السحرة الذي كانوا يقفون ويتابعون وينتظرون دورهم في المعركة لكنَّ الوقت لم يمهلهم، فقد كانت المعركة الأولى فاصلةً وقاصمةً.

كان سنحم يقف إلى جواري طَوال الوقت وتبادلنا النظرات، وأصبح من الواضح الآن أن كلًّا منا يكتم إيمانه دون أن يصرح بذلك للآخر، فسمعته يتمتم قائلا: "أشهد أن لا إله إلا الله" وقلتُ أنا مثله أيضًا.

وقتها وجدت نبسن يهرع إلى الملك قائلًا له:

- سيدي الملك، أرأيت ما يفعله هؤلاء السحرة الخائنون؟ هل ستتركهم يفلتون بفعلتهم هذه؟ لا بد أن هؤلاء السحرة متواطئون مع موسى نفسه، ولا بد أنه هو الذي علمهم السحر.
- نعم يا نبسن أنت محق.

ارتفع صوت الملك قائلًا:

- أيها السحرة الخائنون، كيف تأتون بهذه الفعلة؟ كيف تسجدون لأحد غيري؟ لا بد أن موسى هو كبيركم الذي علمكم السحر.

واصل نبسن تحريضه قائلًا:

- هدِّدْهُم يا مولاي. هددهم. قل لهم: إنك ستعذبهم عذابًا لا يمكن لبشر أن يتحمله أبدًا إن لم يعودوا إلى دين الملك. أفهمهم أنك لن تسمح أبدًا بعبادة إله موسى على أرض مصر.

قال الملك مهددًا:

- سأقطع أيديَكم وأرجلكم من خلاف، وسوف أصلبكم في جذوع النخيل في هذه المدينة، وما أكثرها! أنتم آلاف، وكذلك النخيل مئات الآلاف. إن لم تعودوا عن هذا الضلال فلسوف أقتلنكم بعد عذاب لا قِبَل لكم به.

ومما أغاظ الملك وجعله يشعر بغضب بالغ أنه لم يجد أي رد فعل من السحرة، بل ما زالوا ساجدين، **وهنا توجه نبسن مسرعًا إلى السحرة وقال لهم:**

- اعلموا جيدًا أن الملك لا يهدد بكلام أجوف. سوف تتعرضون لعذاب لم تتخيلوه ولم يخطر لكم يومًا. لن تتحملوا العذاب الذي سوف تلاقونه. سوف يفتك بكم الملك. سيقطع أطرافكم من خلاف وسيصلبكم في جذوع النخيل، وما أكثرها في بلدنا هذا! ألا تخافون؟!

أجاب أحد السحرة قائلًا:

- أنا لا أخشَى شيئًا الآن. أحمدُ الله أنني عرفت الحقَّ قبل أن أموت. أحمد الله أنني لن أموت على الكفر، بل على الإيمان. الحمد لله الذي هداني للإيمان بالله الواحد الأحد. قل للملك: إنني لا أخشى تهديداته بالتعذيب. لقد رأيت من الحق ما جعلني على يقين بأن موسى هو بالفعل نبي الله.

وقال ساحر آخر:

- اسمع يا نبسن. أنا أفهمك جيدًا. أنت شخص تريد أن تحصل على كل المميزات، وأن تكون محور الاهتمام والإطراء والمدح. أنا أتذكرك جيدًا منذ أن كنا زملاء في مدرسة بيت الحياة. أبلغ الملك أنني أتبرأ من كل الأعمال السحرية التي كان يجبرنا عليها. أخبره كذلك أنني لن أعود إلى عبادة تلك المعبودات الخرافية، وأنني من الآن أعبد الله الواحد الأحد.

قال نبسن مهددًا مرةً أخرى:

أنت لا تدري ما الذي ينتظركم من عذاب وقتل وتنكيل. لن تتحملوا ما الذي سوف تتعرضون له. أنا أنذركم لأنكم كنتم في يوم من الأيام زملاء لي. حاولوا أن تفكروا جيدًا قبل أن يحسم الملك أمره.

لم تجد تهديدات نبسن أي صدًى لدى السحرة. كأن الله سبحانه وتعالى في ذلك الوقت كان يثبتهم على الحق، وكأن وحيًا تنزل عليهم مطَمْئِنًا إياهم بأن لا يخشوا شيئًا، فمن ذا الذي يقدر على من يحميه رب العالمين. كان صمودهم وثباتهم عجيبًا.

وقتها لم يكن الكثير من المصريين قد آمنوا؛ خوفًا من تهديدات الملك وخوفًا من بطشه وجبروته، لكنَّ إيمان هؤلاء السحرة لم يتزعزع، وظلوا ثابتين على قناعاتهم وإيمانهم.

الفصل العشرون

بعد هذا اليوم المهيب، قرَّرَ جدي الملكُ -بإيعاز من مرنبتاح وهامان ونبسن- أن ينفذ تهديده بالفعل حتى لا تذهب هيبته وسط المصريين، فيكفي ما حدث في هذا اللقاء الفاصل بين السحرة وبين نبي الله موسى.

وبمساعدة نبسن الخسيس، تمكن الملك من معرفة أسماء السحرة الذين أعلنوا إيمانهم، وقرر إلقاء القبض عليهم جميعًا، وأن ينفذ تهديده، وبالفعل نفذ كل التهديد والوعيد بتقطيع الأطراف من خلاف، والصلب على جذوع النخيل.

لكن هؤلاء السحرة لم يتراجعوا قط، وكان من الممكن جدًّا أن أكون واحدًا منهم، لكن إرادة الله سبحانه وتعالى كانت غير ذلك، فلقد قدر الله لي أن أتابع ما حدث لغيري من السحرة وأن أراه رأي العين؛ لذلك لم أتمكن للأسف الشديد من أن أعلن إيماني.

وعلى أي حال فقد وجدت السحرة في منتهى الثبات والقوة، **وكنت أسمعهم يرددون:**

(رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ) [الأعراف: 126]

حزنت كثيرًا، وتألمت أكثر لما وجدته من المعاناة التي عاناها هؤلاء السحرة، لكني كنت أعرف جيدًا أن الله سبحانه وتعالى سيجازيهم على صبرهم وتحملهم.

لقد ظلوا مصلوبين على جذوع النخيل حتى يكونوا عبرةً لباقي المصريين، وحاول الملك من خلال ذلك أن يمحو مشهد الهزيمة المنكَرة التي تعرض لها في مواجهته مع نبي الله موسى.

وكان يظن أن هذه هي أمثل طريقة حتى يحفظ هيبته ويقنع نفسه بأن ملكه لن يزول، وأنه سيظل محتفظًا بالملك والسلطة والقوة إلى الأبد. ربما كان محقًا نوعًا ما؛ فقد كان الكثير من

المصريين يشعرون بالخوف البالغ مما يرونه من التنكيل والتعذيب، وعندما كانوا ينظرون للنخيل التي تم صلب السحرة عليها كانوا يعيدون النظر، وربما فكر بعضهم في الإيمان بـ "إله موسى" كما كانوا يطلقون على الله سبحانه وتعالى.

لم يكتف الملك بهذا فحسب، بل قرر أن يلاحق كل من سولت له نفسه الإيمان بـ"إله موسى" والقضاء عليهم تمامًا.

علمت من يوشع أن نبي الله موسى قرَّر أن يخرج بالعبرانيين وبكل من آمن بالله سبحانه وتعالى خارج مصر؛ هربًا من البطش والتنكيل.

وصلت هذه الأنباء إلى مسامِع الملك الذي قرَّر أن يحشد جيشًا هائلًا؛ لكي يتمكن من القضاء على هذا الدين الجديد قضاء تامًّا؛ بحيث يمحو ذكره من الوجود للأبد.

علمت أيضًا أن موعد الخروج أصبح متفقًا عليه، وعلى جميع المؤمنين أن يقرروا الخروج مع موسى، وللأسف لم أتمكن أنا من الخروج مع موسى؛ حيث خشيت على أمي وأبي رغم أنهما لم يؤمِنَا، لكنني كنت أخشى عليهما، وكنت أخاف أن أصيبهما في مقتلٍ كوني ابنهما الوحيد، كما أنهما تعلَّقا جدًّا بأبنائي.

قررت البقاء في مصر رغم كل شيء، ولم أكن أعلم حينئذ ما الذي سيحدث، وكيف ستنتهي المعركة.

في يوم الخروج، تجمع العبرانيون وأغلب من آمن من المصريين عند إحدى مدن البحر الأحمر[1]، ومن المفترض أنهم سيعبرون البحر، وقال المؤمنون حينئذ لنبي الله موسى: ماذا نحن فاعلون؟ ها هو جيش فرعون يقترب منا وسيفتكون بنا، كيف سنتصرف؟

1- هناك بعض الأقوال أن الخروج حدث عند مدينة رأس غارب، لكنها مجرد نظرية، وليس هناك ما يؤكد ذلك.

الفصل الأخير

أحببت أن أرى ما الذي سيحدث، فرافقت المؤمنين في هذه الرحلة إلى البحر الأحمر، لكني قررت أن أظل باقيًا في مصر حتى أراعي أبي وأمي. كنت أتابع كل شيء عن كَثَبٍ.

أخذ جيش فرعون يقترب من نبي الله موسى وممن آمن معه. كانت أعدادهم هائلةً جدًّا، وكانت أصوات الخيول وهي تضرب بحوافرها الأرض تحدث صوتًا مفزعًا، وتثير غبارًا كثيفًا يُنزل فزعًا ورهبةً في القلوب.

ألح المؤمنونَ على نبي الله موسى السؤال: ماذا نحن فاعلون؟

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الشعراء: 62]

كان نبي الله موسى واثقًا للغاية مما يقول، فقد أوحى الله سبحانه وتعالى إليه –كما علمت لاحقًا– أن يخوض غمار البحر ولا يخشى شيئًا، فقط عليه أن يشق البحر بالعصا، وأوحى الله لموسى في تلك اللحظة أن يضرب البحر بعصاه، وسوف ينفلق البحر ويكشف عن اليابسَة، وحينئذٍ يستطيع موسى والمؤمنون أن يعبروا البحر بأمان.

أشار نبي الله إلى جموع المؤمنين أن يتبعوه، ووجدتهم يتبادلون النظرات في حَيرة بالغة، فلم يبلغ الإيمان مبلغًا قويًّا بعد في قلوبهم، ولم يستوعبوا حينئذٍ أن بإمكانهم عبور البحر دون غرق، وربما شك البعض في صحة كلام نبي الله، لكن بأي حال لم يكن أمامهم خيار آخر سوى اتباع زعيمهم.

بدأ المؤمنون يتحركون خلف نبي الله موسى، واتجه نبي الله إلى البحر وخاضه وبلغ البحر منتصف جسمِه، وهنا ضرب البحر بالفعل، وما حدث بعدها لم يكن ليصدقَهُ أي أحد، فقد

بدأ البحر يتراجع وينحسر إلى الجانبين، واتخذ شكل جبلين عملاقين، وانكشف اليابس من تحت البحر.

وهنا اندفع المؤمنون دون تردد وأخذوا يسرعون، فقد كان جيش جدي خلفهم يلاحقهم ويطاردهم. استمر نبي الله في شق البحر واستمر المؤمنون في السير وراءه، وكلما كان جيش جدي يقترب من المؤمنين زادت سرعة المؤمنين في اللحاق بنبي الله، فلم يعد هناك مجال للتراجع، بل لا بد من الاستمرار في هذه الرحلة حتى نهايتها.

ما حدث بعد ذلك أحزنني وشعرت بغصة؛ حيث أصبح جيش جدي على مقربة شديدة من البحر، ووجَد جدي هذا المنظرَ العجيب، فقرر أن يواصل السير خلف موسى بما أن اليابسة أصبحت واضحةً، ويمكن السير فوقها بسهولةٍ دون معاناةٍ ودون خوف من الغرق.

أصدر جدي أوامرَهُ للجيشِ بالسير داخل البحر بالخيول، ووجدتني رغمًا عني أصرخ وأحاول أن أُثنيه عن هذا القرار الخاطئ، فقد كنت متأكدًا أن الله سيُنجي نبي الله موسى والمؤمنين وسيهلك فرعون وجيشه، **كنت أصرخ بأعلى صوت لدي:**

- لا يا جدي. لا يا مولاي. أرجوك يا جدي لا تذهب خلف موسى. جدي، جدي.

لكن بالطبع صوتي لم يصل إليه أصلًا بسببِ أصوات الخيول والجنود، فلم يسمعني أو يرني أحد، وحدث ما كنت أتوقعه، دخَلَ الجيش بقيادة جدي إلى البحر ظنًّا منه أنه سيلحق بموسى لكن البحر عاد كما كان.

لقد غرق جدي ومعه كل الجيش، ولمحت معهم نبسن أيضًا، وأخذت أنظر حولي يمينًا ويسارًا فلم أجد أحدًا يشهد هذا المنظر سواي، وكنت أتمنى لو كنت نجحت في أن أثني جدي عن هذا

التهور؛ لكيلا يلقى هذا المصير. نعم لقد آمنت بالله الواحد الأحد، لكني رغم كل شيء كنت أحِبُّ جدي.

لم تمضِ بعض الأيام إلا وكانت أغلب الجثث قد طَفَتْ فوق البحر، وأصبح الخبر معروفًا لدى الجميع، فأصبح القاصي والداني يعرف ما الذي حلَّ بجيش جدي، لكنهم لم يتيقنوا بالضبط أو يكتشفوا ما الذي حدث مع موسى، كانوا في البداية يظنون أنه غرق مع مَن غرق.

لقد ظهرت جثة جدي، وتمكن المصريون من انتشالها، وبدأوا في تحنيطها كما هو معتاد. كنت أتمنى لو أني لحقت بموسى كي أعرفَ المزيد والمزيد عن دينِ التوحيد، لكني لم أتمكن للأسف، فقررت البقاء إلى جانب أبي وأمي، لكن ما كان يسعدني حقًّا أنني تركت ممارسة السحر إلى الأبد، فالله وحده هو خير الحافظين.

خاتمة

كم مرة استمعنا فيها إلى قصة نبي الله موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وذروة الأحداث عندما تحدى فرعون نبي الله، وأخبره أنه سيجمع له السحرة؛ ليُثْبت له كم هو ضعيف؟

لقد كان فرعون واثقًا للغاية من مقدرة السحرة على إنزال الهزيمة بمن يريد أن يخرج قومه "عن ملتهم"، وأنهم سينجحون بسهولة في إظهار مدى كذبه.

في هذا السياق كان دائمًا ما يلفت نظري أمرُ قصة سحرة فرعون، رغم أنه لا توجد مصادر تقريبًا تتحدث عنهم –أو على الأقل في إطار بحثي المتواضع عن تلك المصادر–، وما يلفت نظري هو هذا التحول التام والمفاجئ في توجهات هؤلاء، فبعد أن كانوا يعينون فرعونَ بسحرهم في السيطرة على عقول المصريين انقلبوا 180 درجة، ونبذوا السحر والكفر وعبادة الأوثان، وتابوا وأنابوا، وشهدوا أن لا إله إلا الله سبحانه وتعالى.

ليس هذا فحسب، بل ضحوا بحياتهم من أجل إيمانهم الوليد، بعد أن أضاعوا حياتهم من أجل المكاسب الدنيوية بما يقترفون من سحر وشعوذة، وقرروا –بعد أن تملك الإيمان من قلوبهم– أن حياتهم لم يعد لها أي أهمية، خاصة بعد أن هددهم فرعون بأنه سيُصَلِّبُهُمْ، وسيقطع (أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ)، فلم يخافوا هذا التهديد، ولم يهابوا مصيرهم المحتوم وهو الموت، فقرروا أن حياتهم يمكن أن تذهب رخيصةً دفاعًا عن إيمانهم الذي أصبح راسخًا بشدةٍ.

أتعجَّب جدًّا من هذه اللقطة في تاريخ رسالة نبي الله موسى عليه السلام، وكثيرون تحدثوا عما لاقاه وهو يدعو بني إسرائيل، ومدى معاناته معهم بسبب عنادهم وتعنتهم، وعدم رسوخ إيمانهم، وماديتهم الشديدة وجدالهم، لكن ما من أحد تقريبًا تحدث عن سحرة فرعون، وكيف حدث لهم هذا التحول الهائل.

والتحدي الحقيقي الذي وجدته أمامي هو أنني أتحدث عن فترة معروفة تاريخيًّا، لكن في الوقت ذاته لا يوجد ما يكفي من التفاصيل التي يمكن أن تلقي الضوء على السحرة وعلى حياتهم، وعلى الطريقة التي كانوا يمارسون بها السحر، كما أن هناك مشكلة كبيرة لدينا كمصريين في تحديد من هو فرعون موسى، فنتعامل مع الموضوع بحساسية فائقة، وكأنها مسألة عَقَدية، لكن بعد بحث وقراءة متأنية أصبحت أميل إلى الرأي الشائع، وهو أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني.

ويبقى التحدي التالي، وهو تفاصيل حياة أحد السحرة في ذلك الوقت؛ حيث وقعت عيني على بعض المصادر التي اتكأت عليها في تأليف هذه القصة، وهدفي منها هو تسليط الضوء على لقطة سحرة فرعون، وكيفية تضحيتهم بحياتهم في سبيل إعلاء كلمة الحق، وللتكفير عن ذنوبهم، والساحر الذي وقع اختياري عليه هو "سي أوزير" وهو ابن الأمير ساتني، وحفيد رمسيس الثاني.

الجزء الأكبر من القصة من نسْجِ الخيال بالطبع، فليست هناك مصادر تتحدث عن هذه التفاصيل الدقيقة، لكنها شخصية كانت موجودة في التاريخ، وهناك بعض المصادر التي تحدثت عنه، وعن الخوارق التي قام بها بصفته ساحرًا، لكنني سأتحدث عنه بصفته أحد سحرة فرعون.

ومن الأسباب التي جعلتني أقرر أن هذا الساحر لم يَمُتْ مع باقي سحرة فرعون هو أن هذه القصة موجهة لليافعين، ووجهة نظري أن هذه الفئة العمرية لا تتحمس للقصص التي تكون نهايتها موت البطل.

دينا عفيفي

6 يونيو 2022

المصادر:

- السحر والماورائيات في مصر القديمة. تأليف: كريستيان جاك، ترجمة: صفاء محمد.

- تاريخ مصر القديم (الجزء الثاني: منذ بداية الأسرة الخامسة عشرة حتى دخول الإسكندر الأكبر مصر)، تأليف: دكتور رمضان السيد.

- بحث باسم "مصير سحرة فرعون في القرآن الكريم"، إصدار مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد. للباحثين: أ. د. قتيبة فوزي جسام الراوي، وأ. د. زُبُن عجيمي إبراهيم الدليمي.

- البداية والنهاية لابن كثير.